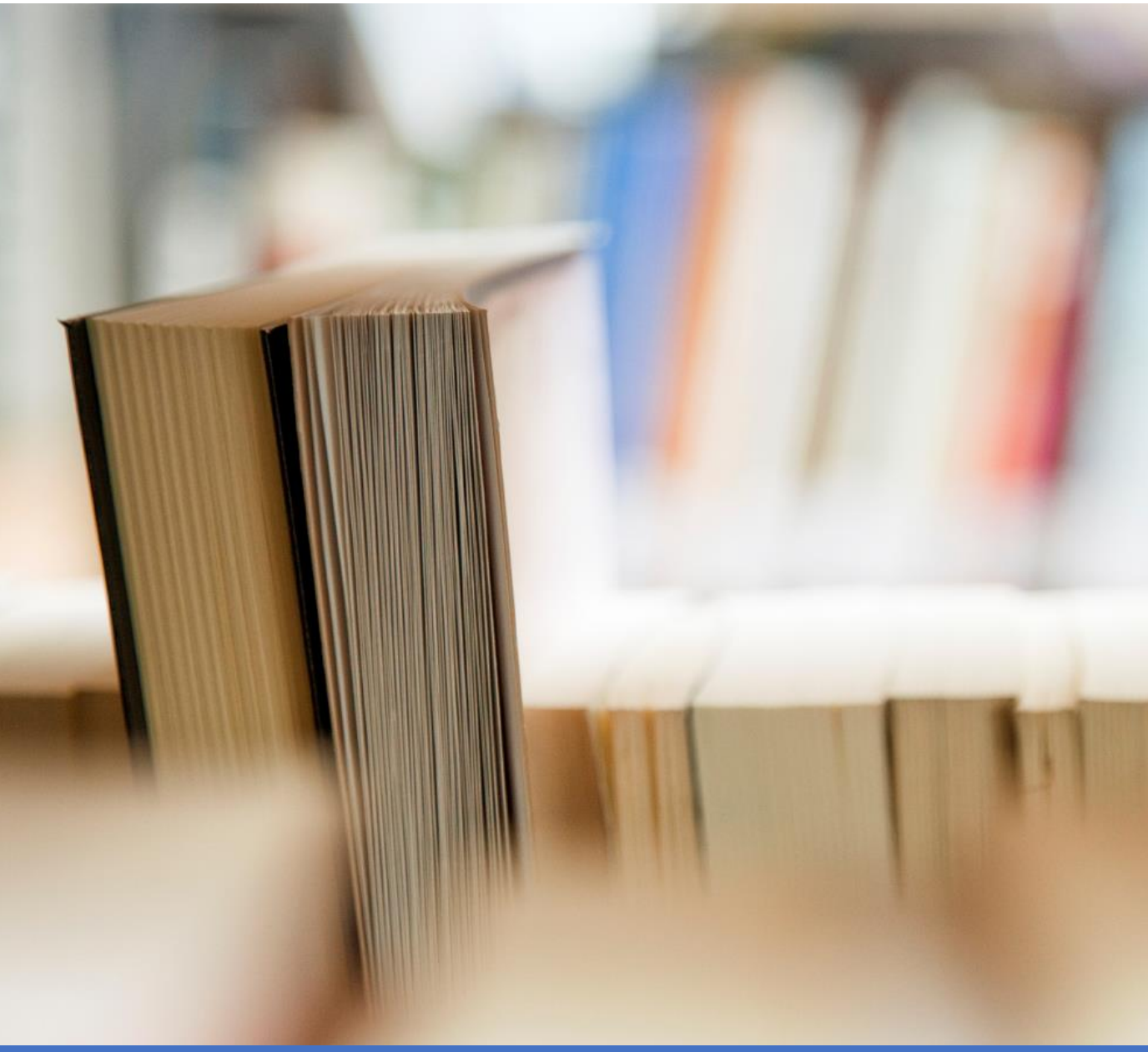

محاضرات في النظرية الاجتماعية

د/ مروة صلاح الدين

محاضرات في نظرية علم الاجتماع

د/ مروة صلاح الدين

أستاذ علم الاجتماع المساعد

العام الجامعي

2023 /2022

بيانات الكتاب

الكلية/ الآداب

الفرقة/ الثانية

قسم: علم الاجتماع

تاريخ النشر/ مارس 2023

عدد الصفحات/122

أستاذ المقرر/ د. مروة صلاح الدين

قائمة المحتويات

الفصل الأول: 4

النظرية الاجتماعية: 4

المعنى والوظائف والغايات. 4

الفصل الثاني: 18

النشأة المبكرة للنظرية الاجتماعية عند ابن خلدون 18

الفصل الثالث 26

نشأة النظرية الاجتماعية في اوربا الغربية 26

الفصل الرابع: 43

النظرية الاجتماعية:السمات والقضايا. 43

الفصل الخامس : 68

النظريات البنائية (منظور الإجماع عند أوجست كونت وإميل دوركايم) 68

الفصل السادس: 91

النظريات البنائية (منظور الصراع عند كارل ماركس) 91

الفصل السابع : 101

النظرية البنائية عند ماكس فيبر 101

الفصل الثامن 112

النظريات التأويلية: التفاعلية الرمزية 112

الفصل الأول:
النظرية الاجتماعية:
المعنى والوظائف والغايات.

في معنى النظرية العلمية

تحتل «النظرية العلمية» مكانة متميزة في البحث العلمي بصفة عامة، سواء أكان موضوع هذا البحث ظاهرة طبيعية أو ظاهرة إنسانية. ويعلق عليها نفر من الباحثين أهمية خاصة في تحديد «هوية» أي علم من العلوم، حتى أن بعضا من هؤلاء الباحثين يذهب إلى حد جعل دورها أكثر أهمية من دور المنهج العلمي، على اعتبار أن المنهج العلمي شيء مشاع بين كل العلوم. أما نظرية أي «علم»-كعلم النفس أو علم الاجتماع مثلا-فهي التي تحدد موضوعه وتنظم عملياته وأدواره، بل ومساره. [1] هذا على خلاف المنهج العلمي الذي يعد أساسا واحدا لكل العلوم، وإن اختلفت تفصيلات أدواته وتكنيكاته باختلاف الظاهرة المدروسة. فالملاحظة مثلا خطوة أساسية في كل بحث علمي، طبيعي أو إنساني، والاختلاف إنما يكون في أدوات الملاحظة التي قد تكون «المنظار الفلكي» أو «الاختبار النفسي»، أو «دليل الملاحظة» كما في علم الإجتماع.

ونتيجة لهذه الأهمية، شغل تحديد معنى النظرية العلمية، وشروطها ومكوناتها ووظائفها عددا غير قليل من فلاسفة العلم، والمشتغلين بمناهج البحث، والمتخصصين في كل فرع من فروع العلم الإنساني. وترتب على كل هذه الجهود وجود كم لا بأس به من الكتابات والمحاولات، وبالرغم من تباينها الذي يصل في بعض الأحيان إلى حد التناقض، فبالإمكان إستنتاج بعض نقاط الإلتقاء بينها، والتي تمثل حدا أدنى مقبولا بين المهتمين بهذا الموضوع. ونذكر في هذا المجال ما يلي:

ا-فيما يتعلق بتعريف النظرية العلمية يكاد يكون الإتفاق واردا على أنها نسق فكري استنباطي متسق [2] حول ظاهرة أو مجموعة من الظاهرات المتجانسة[3]، يحوي-أي النسق-إطارا تصوريا ومفهومات وقضايا نظرية توضح العلاقات بين الوقائع وتنظمها بطريقة دالة وذات معنى، كما أنها

ذات بعد إبريقي [4] بمعنى اعتمادها على الواقع ومعطياته، وذات توجيه تنبئي [5] يساعد على تفهم مستقبل الظاهرة ولو من خلال تعميمات احتمالية.

2- قد يرى البعض أن التعريف المذكور توا ليس إلا نوعا من التجريد المغلف بثوب الغموض، الذي يحول دون تواصل اللغة العلمية بين الباحث والمواطن، سواء كان هذا المواطن رجل تخطيط أو تنفيذ أو مثقفا، أو مواطنا مهتما. وإذا كان هذا السؤال مشروعا فكريا وأخلاقيا، فإن ضرورة تقديم إجابة عليه تقتضي توضيح شروط النظرية،أو خصائصها، ووظائفها وهي جوانب يفترض إنها ستضيف على التعريف السابق قدرا من الوضوح.

3- وإذا وقفنا أمام أهم شروط النظرية العلمية نجد الكتابات المعنية بذلك تلتقي عند:[6]

أ-ضرورة أن تكون مكونات النظرية واضحة ودقيقة، محددة الألفاظ والمعاني والمضامين.

ب-أن يعبر عما تشتمل عليه النظرية بإيجاز تعبيرا يوضح هذه المشتملات،

و يبين غرض النظرية عموما، وأهداف كل مكون من مكوناتها تخصيصا.

ج-أن تكون النظرية شاملة بقدر الإمكان للجوانب التي قصد أن تنطوي عليها النظرية بما في ذلك وصف وتحليل وتفسير الحقائق المعنية.

د-أن تكون النظرية متفردة في موضوعها ومشروعها التفسيري، ذلك لأن وجود نظرية أخرى تدرس نفس الموضوع وتفسره بنفس العوامل والطرق يضعف النظرية ويجعلها تكرارا لا مبرر له، يتنافى مع قاعدة الإقتصاد العلمي.

ه-أن يكون للنظرية أرضية واقعية، بمعنى أن تعتمد في صوغها على ملاحظات ودراسات واقعية من ناحية، وأن تكون قابلة للإختبار العلمي الذي يثريها و يكسبها مشروعيتها العلمية من ناحية أخرى، فالنظرية التي تأتي بقضايا تستعصي على الإختبار لا تعد نظرية علمية.

و-يعد شرط وجود قدرة تنبئية في النظرية شرطا أساسيا فيها.

فالنظريات التي تقف عند مجرد الوصف تفيد، لكنها تعد ناقصة، والنظريات التي تقف عند مجرد التفسير تفيد، لكنها تعد ناقصة أيضا، لأن قدرتها على التنبؤ تزيد من قوتها من جانب، وتجعلها قادرة على مساعدة العلم كي يقوم بدوره المجتمعي الإنساني من جانب آخر.

4- وأما عن وظائف النظرية العلمية فقد تراوحت بين التضييق والشمول، أو ما يمكن أن نسميه بوظائف الحد الأدنى، والوظائف التي تتجاوزه إلى أخريات اكثر شمولا. فعلى المستوى الأول يذهب بيير دوهم P.Duhem إلى أن هدف النظرية العلمية يتركز في عرض الوقائع وتنسيقها، وأما التفسير فهو شيء يأتي متطفلا عليها. ولكي يدلل على زعمه هذا ميز بين نوعين من النظريات: تلك التي تختص بالوصف، وتلك التي تهتم بالتفسير. ومع إشارته إلى وجود نوع يهتم بالتفسير، فرأيه إجمالا يعد دفاعا ضمنيا عن نوع من النظريات، ومحاولة هروبية من مسألة هامة قد توقع الباحث في كثير من المخاطر، عندما يفسر، فلا يرضى تفسيره هيئة أو شخصا ما. فضلا عن أن مثل هذه المحاولات تضعف من دور البحث العلمي، ولو على المستوى الرسمي، لأن أي مخطط أو متخذ قرارا يهمه أن يعرف ولو قدرا من العوامل التي تحدث ظاهرة أو مشكلة معينة. وبجانب هذا يذهب البعض من أمثال موريتس شليك M.Schlick إلى أن تقدم العلم والمعرفة العلمية مرهون بالتفسير [7]. وبنفس القدر من التأكد يذهب الباحث الأمريكي في علم الإجتماع هارولد فالدنج H.Falding إلى انه لكي تكون النظرية علمية يجب أن تكون ذات قدرة تفسيرية، لكنه بالنظر إلى أن كثيرا من النظريات- تجاوزا-اهتمت بوظائف كثيرة عدا الوظيفة التفسيرية فقد حاول أنصارها إنكار هذا الدور[8]

وإذا تركنا مثل هذه المناقشات جانبا، لنقف على أهم وظائف النظرية التي ورد تكرارها أكثر من غيرها بين الكتاب والباحثين المعنيين بهذا الشأن يمكن إيجاز الوظائف التالية التي تؤديها النظرية العلمية:-

ا- تساعد النظرية أي علم على تحديد «هويته» وموضوعاته الأساسية، الأمر الذي يسهم في إبراز دوره المعرفي التراكمي، حيث يحدد في ضوئها ما يجب دراسته أكثر من غيره، وما الذي لم يدرس، ومستوى ما تم التوصل إليه [9].

2- نظرا لتشعب الظاهرات الطبيعية والإنسانية وتعقدها، فالنظرية العلمية تعد نقطة البدء الأولى والهامة حيث تمد الباحث بإطار تصوري يساعده على تحديد الأبعاد والعلاقات التي عليه أن يدرسها، وتمهد له الطريق لجمع معطياته وتنظيمها وتصنيفها، وتحديد ما بينها من ارتباطات وتداخلات [10] وباختصار تنطوي النظرية على توجيهات تمد الباحث بالسياق العلمي الذي سيجري بحثه من خلاله.

3- تؤكد خبرات البحث العلمي أن جمع بيانات بلا نظرية موجهة يسلمنا إلى بيانات صماء عمياء فاقدة المعنى والوظيفة، وبنفس القدر تعد النظرية العلمية بلا معطيات وبيانات عملا خاويا، ومحض مفهومات ومصطلحات مجردة. ومن ثم يؤكد معظم المشتغلين بالبحث العلمي عامة، وفي مجال العلم الإنساني بالتخصيص على أهمية العلاقة الجدلية بين النظرية العلمية والبحث [11].

هناك جملة وظائف علمية لنظرية علم الإجتماع، من نوع تلك التي تمت الإشارة إليها في معرض الحديث عن النظرية العلمية في مطلع الفصل الراهن، كدورها في تنظيم البحث السوسيولوجي، وتوجيه الباحث إلى النقاط والأبعاد الضرورية، وتوضيح الإرتباطات والعلاقات بين المعطيات، وغير ذلك من وظائف علمية ليس لنظرية علم الإجتماع فضل أو دور تتميز به عن أي نظرية تتحلى بالخصائص العلمية في أي علم من العلوم. على أن الذي يقتضي إيضاحا وتركيزا أكبر هو تلك الوظائف النوعية التي تضطلع بها نظرية علم الاجتماع، والتي تجعل لوجودها معنى، ولعلم الإجتماع ضرورة بين غيره من العلوم.

ولكي نوضح هذه الوظائف، قد يتفق القارئ معنا على التساؤل عن دواعي إنشاء علم يوسم بعلم الإجتماع، له معاهد وجامعات، ومطبوعات ودوريات، ومتخصصون، عملهم هو علم الاجتماع. حقا إن المطلوب من

هؤلاء المتخصصين تنمية علمهم وتطويره نظريا ومنهجيا لكي يكون أكثر قدرة. على الدراسة العلمية. ولكن السؤال الأهم: ما فائدة «سكين منهجي يشحذ» ومجلدات تؤلف و«صفحات تكتب» و«طلاب تدرس» إذا كان المخرج النهائي ديكورات المكتبات ؟ ماذا يفيد المجتمع والإنسان؟ وماذا ينتظر المواطن من الباحثين؟ أتصور أن الجماهير تتوقع من علم الإجتماع أشياء أكبر وأهم من مجرد التمسك بتلابيب الدقة والأناقة المنهجيتين. فلا يهم رجل الشارع أو القروي أو البدوي أو الموظف ما إذا كان «ماكس فيبر» هو الأدق، أو إن«بارسونز» هو الذي تحلى بنظرة أكثر شمولا . إن ما يريده المواطن العادي ظروفا مواتية لبقائه وعمله وتفاعله، لكسب قوته وقوت أسرته ولنيل مسكن صحي إنساني، وحاجات أساسية مشبعة، وعلاج فعال، وتعبير عن إرادته وطموحاته وتطلعاته.. وإذا لم يقدر العلم الذي يزعم أنه علم الإنسان والمجتمع على تحقيق هذا، فلا يستحق لحظة واحدة لقراءة صفحة واحدة

من كتاب واحد من كتبه.

ولهذا إذا كان علم الإجتماع يركز على ما هو اجتماعي، وما هو عام وما

هو ضروري للإنسان وللمجتمع، فمعنى ذلك أنه متوجه أساسا نحو تحقيق الإرادة الإجتماعية-إرادة المجتمع-ومتوجه نحو المصالح العامة متجاوزا المصالح الفردية والفئوية، التي تأتي في مراحل تالية، ومتجاوزا الغايات الآنية إلى أخريات أكثر شمولا وأكثر استمرارا. وما دامت غايته إنسانا سعيدا فعلا، ومجتمعا رحبا فعلا، فمعنى هذا أنه لابد له أن يدرس أساليب ما يحقق كل هذا وبنفس القدر دراسة كل ما يحول دون هذا. إنه إذن قدر علم الإجتماع أن يكون مع العامة ومع الأغلبية، و يقف ضد من يقف ضدهم. إن جملة الوظائف الإجتماعية المتميزة لعلم الاجتماع ونظريته هي التي جعلت الكثيرين يتخوفون منه، حتى إنه قبل عقدين من الزمان أو ما يزيد عنهما قليلا لم يكن يسمح بتدريسه في المستويات دون الجامعية في إنجلترا، إذ إن دور النظرية-ودور العلم بالأساس-متوجه نحو العدل للكل والخير للكل والسعادة للكل، متوجه نحو تغيير المجتمع لكي يكون أكثر قدرة على,

تحقيق وظائفه والتزاماته تجاه الإنسان، ومتوجه نحو تغيير الإنسان لكي يكون أكثر قدرة على تحقيق وظائفه والتزاماته تجاه المجتمع، ولهذا ولد علم الإجتماع لكي يكون علما نقديا، وعلما رافضا لكل ما هو ضد إنسانية الإنسان. أليس من أدلة هذا أن المولد الحقيقي للعلم الحديث ونظريته حدث في عصر التنوير حيث كان مفكرو هذا العصر اكثر تفهما للوظيفة الإنسانية لعلم الإجتماع ونظريته، ولم نلحظ منظرا مهما إلا وكانت له تصوراته المتعلقة بالتغيير مهما كانت درجة هذا التغير، وتوجهاته [31].

تصوراته المتعلقة بالتغيير مهما كانت درجة هذا التغير، وتوجهاته [31].

ولنتساءل سويا: هل حقق علم الإجتماع ونظريته هذه الوظائف ؟ وهل استمر ي تحقيقها؟ الإجابة في التحليل الأخير مرتبطة بالباحثين بوصفهم بشرا، يحكمهم كل ما يحكم البشر، من نوايا ومصالح، وانتماءات، وبالتالي كان منهم الكثيرون ممن أخلوا بالرسالة الحقيقية للعلم. لقد كان مثل هذا الوضع الشائك منها للكثيرين كي يكشفوا عن خيانة علم الإجتماع لدوره، وخيانة نظريته لوظائفها الإجتماعية، الأمر الذي أفضى إلى حركة نقدية تتجه نحو الاشتعال حتى داخل الولايات المتحدة الأمريكية !! فإذا كانت هناك موانع من أي نوع تحول بين الباحثين في علم الاجتماع وبين المشاركة الحقيقية في صناعة قرارات مجتمعاتهم، وفي التخطيط الشامل لتجاوز المشكلات، فلن يتبقى لهم إلا الدور النقدي وهذا ما أكده «ألفن جولدنار»

أحد أنصار التيار النقدي في علم الإجتماع الأمريكي المعاصر حين أشار إلى أننا-في علم الإجتماع-لسنا في حاجة إلى تنظيرات جديدة، وإنما في حاجة إلى مجتمعات جديدة، وفي حاجة إلى دراسة وتوكيد الظروف الإجتماعية المفضية إلى تصحيح الوعي الزائف بالإنسان والمجتمع، والقضاء أيضا على كل ما يحول بين الباحث وبين إدراكه الحقيقي لمجتمعه. وهذا يعني أن على نظرية علم الاجتماع، نقد نفسها، وإعداد قضاياها، لكي تسهم في النقد الإجتماعي [32].

وإذا كان هذا هو رأي أحد الباحثين الأمريكيين فإن «بوتومور» الإنجليزي، يؤكد أن أزمة نظرية علم الإجتماع إلى جانب عدم إفساح المجال للمشتغلين بعلم الإجتماع للمشاركة المجتمعية، وفي التخطيط لمجتمعاتهم، كل هذا يرتبط بما آل إليه حال النظرية وحال البحث السوسيولوجي عامة، حيث تحولت النظرية إلى نظرية وضعية وصفية، ونأت عن دورها النقدي العلمي الإجتماعي [33].

وباختصار شديد يعد الاهتمام بقضايا النقد الإجتماعي من بين أبرز الوظائف النوعية التي على نظرية علم الاجتماع أن تضطلع بها، وكلما كان هذا الدور أكثر إرتباطا بالمشكلات المجتمعية الجوهرية والعامة، كان أكثر عطاء وأكثر إرتباطا بعلم الإجتماع، ومن ثم فالاستغراق في مشكلات عرضية وجزئية كحوادث السيارات، وسوء الخدمة الصحية، وتقسيم الدول إلى فقيرة وغنية... الخ يعني اهتماما بالعرض لا بأصل المرض، ويحول الباحث السوسيولوجي إلى «ميكانيكي مشكلات» لا يختلف عن الحرفي العفوي بالمعنى الأصيل للكلمة[34]. ولا يعني هذا ترك النقد للكلمات والنوايا الطيبة، لأن صرامة النقد ليست هي التي تحدد أثره، وإنما أصله الإجتماعي التاريخي وأثره على توازن القوى الإجتماعية، والعوامل الأساسية المؤثرة في العلاقات الإجتماعية بين الجماعات، فضلا عن إمكان وصوله للجماهير وخروجه عن نطاق حلقات الأساتذة وصالوناتهم، فحياة الناس الواقعية

هي في نهاية الجولة الإختبار الحقيقي لنظرية علم الإجتماع [35]..

مكونات بناء النظرية

من جملة التعريفات يتضح أن تحليلها يحدد وحداتها الأساسية باعتباره. أولاً: المفاهيم، هذه المفاهيم لابد وأن تكون مترابطة. وهناك القضايا، هذه القضايا لابد وأن تكون مترابطة ومتسقة منطقيا ومتدرجة هذا الجانب أن الكيان النظري بكامله، يجب أن تكون اسناداته الإمبيريقية.

فما هي المفاهيم إذن؟ المفهوم كما يعرفه ماكليلاند يعد تمثيل مختصر لمجموعة من الحقائق[٣١] بمعني أن مفاهيم علم الاجتماع هي رموز لفظية مميزة تعطي الأفكار معممة تم تجريدها عن الملاحظة العلمية للمجتمع [٣٢].

إذن فالوظـيفة الأساسـية للمفهوم أنه يجرد الواقع تحت رمز معين. واعني بالتجريد أنه يفصل الظاهرة عن الارتباطات الأخرى التي لا يحتاجها العلـم. إذ يقـوم الباحـث بـتجريد الحقـائق المناسبـة من المركب الكلي للظاهـرة[٣٣]. ويسـاعد المفهوم علي تحديد المعطيات التي تتدرج تحته، بحيـث يسـاعد ذلـك علي التقليل من إمكانية تضمين أية بيانات إمبيريقية زائفـة[٣٤]، هذا إلي جانب إلغاء إمكانية التناقض بين المعطيات التي يغطيها هـذا المفهوم إذا كان صارم التحديد. بالإضافة إلي أنه يحدد الاستجابة له إذا طـرح فـي موقـف معيـن. وهناك أنواع من المفاهيم، المفاهيم الوصفية، والإجرائية، تلك المفاهيم التي تعبر عن متغيرات كما أشار ميرتون إلي ذلك.

فـإذا طـور الباحـث مفاهيم معينة، او طورت نظرية معينة بعض المفاهيم.

فلابـد من إجراء مراجعة مستمرة حتي لا يتخلف المفهوم عن رمزه أو إشارته إلي حقائق محددة بالواقع. إذ قد تتغير معاني المفاهيم نتيجة للتراكم العلمي. فمفهوم التطور الذي استخدمه الرعيل الأول من علماء الأنثربولوجيا وعلـم الاجتماع ليس نفسه الذي يستخدمه العلماء المحدثون من أمثال جايلد ووايـت. ويشير ايرانست ناجل في مؤلفه بناء العلم إلي أن مفهوم الالكترون قد تغير معناه في الفيزياء مع تطور هذا العلم، بل إن مفهوم الجريمة كانت له نـتائج خطيرة بعد أن عدله ادوين ساذرلاند بحيث أسهم ذلك في خلق نظرية جرائم أصحاب الياقات البيضاء[٣٥].

أمـا القضـية proposition فـتعرف علي أنها تعبير عن الواقع الاجتماعـي يتضـمن مفهوميـن أو أكثر ويمكن إخضاعها للبحث العلمي. والقضـايا تعـبر عـن العلاقات بين المفاهيم، وقد يشار إلي القضية أحيانا باعتـبارها فرضاًhypothesis أي تعميما مبدئيا يخضع للاختبار الإمبيريقي

للتعرف علي صدقه أو خطئه ولذا فقد ينظر إلي النظرية علي أنها مجموعة من الفروض[٣٦]. وتنقسم القضايا إلي نوعين في أي نسق نظري، القضايا العامة أو القضايا من النظام الأعلي، أما القضايا الأقل عمومية فهي تلك التي نسميها بالقضايا من النظام الأدني أو القضايا الإمبيريقية، ومن المهم القول أن القضايا ذات النظام الأدنى تشتق من القضايا العليا تحت شروط معينة[٣٧]. وهذا يتضح من تعريف براثوايت للنظرية حيث يقسم قضاياها إلي قضايا عامة ويعتبرها مقدمات، أما القضايا الناتجة عنها أو المشتقة منها فهي مستنبطات، تأكيدا علي العلاقات المنطقية القائمة بين قضايا النسق النظري بحيث لا يمكن أن يكون هناك تناقض فيما بينها. بل أننا يمكن أن نؤسس تصنيفا مترادفا للتصنيف السابق إلي حد ما علي أساس أن هناك قضايا بسيطة وقضايا مركبة.

وبالنسبة للاتساق المنطقي فهو يعبر كما أشرنا عن الصياغة البنائية لقضايا النظرية أو مقولاتها في بناء يمتلك قدرا من الاتساق الذي لا يولد أي تناقض بين مكوناته، بحيث يجب أن ينص الاتساق المنطقي علي تسلسل هذه القضايا بحيث تصبح كل مستوى أدنى مشتق من المستوى الأعلي وتسلم أي تعديلات في قضايا المستوى الأدنى، بناء علي البحث الإمبيريقي، إلي تعديلات لها تأثيرها علي قضايا المستويات الأعلى. وحتى تصبح النظرية العلمية أكثر نضجا فإنها تميل لأن تشكل نسقا مغلقا ومتسقا. ويساعد امتلاك النظرية لبناء منطقي متسق علي اشتقاق الفروض الذي من غير المحتمل أن تناقض مع بعضها البعض. بالإضافة إلي ذلك تساعد النظرية المتكاملة علي تأكيد إثباتها بدرجة تفوق الحالة التي يكون منها الإطار النظري متضمنا بعض الفروض المتميزة والمنفصلة بعضها عن البعض. بيد أن التأكيد علي الاتساق المنطقي يفتح الباب أحيانا لنوع من الجدل اللفظي والتنظير العقيم ما دامت الافتراضات النظرية بعيدة عن أي إسناد إمبيريقي، أو أنها قد تتضمن مستويات عليا من التجريد الذي يقدمه البحث الامبيريقي[٣٨]. إلا إننا إذا كنا

ملخص الفصل

مفهوم النظرية العلمية

- تفسير عام مجرد يبسط الواقع ويسهم في فهمه.
- محاولة تعميمية منظمة لتفسير ظاهرة ما.
- تشير النظرية إلى تصور أو رؤية تحاول إن تفسر ظاهرة أو واقعة ما أو مشكلة أو سلوك استناداً على حجج منطقية أو إمبيريقية ويتسم هذا التفسير بدرجة من العمومية تتجاوز مستوى المشاهدات العينية إلى ما ورائها.

بناء النظرية

- المفاهيم(المتغيرات): مفاهيم سوسيولوجية مثل الإنتاج, الطبقة, الدور, التنشئة الاجتماعية, المعايير, الرموز...الخ, كل مفهوم يستند على أولوية وأهمية هذا المفهوم في تفسير الواقع الاجتماعي.
- التعريف : كل نظرية يجب إن توضح المقصود تحديداً من مفاهيمها,فتعريف المفهومات يأخذ شكل جمل خبرية عن الظاهرة موضوع النظرية.
- القضية النظرية(الفروض) : تعمل القضايا النظرية على الربط بين المفهومات (المتغيرات) بصورة علية
- توضح القضايا النظرية كيفية وقوع الأحداث أو الظواهر في ضوء علاقتها بمفاهيم النظرية.

وظائف النظرية:

- التفسير
- النقد الاجتماعي
- التنبؤ

مراجع الفصل

- عبد الباسط عبد المعطي(1981) اتجاهات نظرية في علم الاجتماع, عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب ، الكويت.
- علي ليلة (دت) بناء النظرية الاجتماعية ، المكتبة المصرية ، القاهرة.

الفصل الثاني:

النشأة المبكرة للنظرية الاجتماعية عند ابن خلدون

التعريف بابن خلدون:

هو ولي الدين أبو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد الحضرمي ،المعروف بابن خلدون.

ولد ابن خلدون يومه الاربعاء 1 رمضان 732 هجرية) 27 مايو 1332 م(في تونس من أسرة أندلسية،تتلمذ في صغره على يد نخبة من العلماء كان أبوه أولهم،اشتغل بالوظائف الإدارية و المكتبية و السفارات لمدة تقارب العشرين سنة في بلاد المغرب العربي و شرقه،استقر في الجزائرثماني سنوات قبل أن يعود إلى تونس مختليا و متأملا قراءة و تأليفا –حيث ألف كتال "المقدمة" و كتاب"المبتدأو الخبر"– قبل الإنتقال مدرسا بجامع الزيتونة،قضى عهده الأخير مستقرا في القاهرة أستاذا بالأزهر الشريف و عمل بالقضاء إلل أن وافته المنية في مصر يومه الجمعة 28 رمضان 808 هجري) 19 مارس 1406 م(و تم دفنه قرب باب النصر شمال القاهرة.

أهمية فكر ابن خلدون لعلم الاجتماع:

يعد ابن خلدون أول مفكر عربي حدد موضوعات علم الإجتماع و رسم منهجه غير أن أفكاره و نظريته الإجتماعية لم تنشر إلا في القرن 19 و من ضمن مساهماته ما يلي:

- قام بتأسيس علم الإجتماع تحت اسم "علم العمران البشري" لدراسة و تفسير الظواهر الإجتماعية الماضية و قوانينها.
- يرى أن المعرفة تتحقق بالإستقراء الفطري الذي هو في حقيقته استقراء علمي تنقصه التجارب ووسائل البحث،و التي عوضها بالحس و استخدام المنطق.

الإستقراء:تتبع جزيئات الأحداث للوصول إلى الكلية.

- أكد على صلة علم الإجتماع بالعلوم الإجتماعية الأخرى)الإقتصاد،السياسة،علم النفس(و على تأثير و أهمية البيئة)العوامل الإقتصادية و الجغرافية(في تفسير الظواهر الإجتماعية.
- قسم حياة المجتمعات الإنسانية إلى ثلاثة أطوار:النشأة =<النضج و الإكتمال=<الشيخوخة والتي تقوم على أنقاضها مجتمعات جديدة.
- قسم المجتمعات إلى قسمين:

✓ مجتمعات بدوية: تتميز بالخشونة و البساطة و الكرم و الشجاعة.

✓ مجتمعات حضرية: سكان المدن و يتميزون بالترف و الرقة و التعقيد و التخصص و المصلحة.

الاستخلاصات المعرفية من مقدمة ابن خلدون:

القارئ لمقدمة ابن خلدون قراءة عميقة، والمُتأمل فيها تأمل المتخصص في علم الاجتماع، سيجد أنها قد احتوت على أقل تقدير على سبع من القضايا الاجتماعية المعاصرة، وهي:

- 1. قواعد المنهج وطرق البحث في علم الاجتماع، والتي تتصدر الصفحات الأولى من المقدمة.
- 2. علم البيئة (الإيكولوجيا)، والذي يدرس أثر البيئة الجغرافية على الإنسان وطرق تكيفه معها، ويشمل ذلك دراسة العمران البشري، وأصنافه، وقسطه من الأرض.
- 3. علم الاجتماع البدوي وعلم الاجتماع الحضر، والحياة الاجتماعية في المجتمعات البسيطة غير المعقدة.
- 4. علم الاجتماع السياسي، والذي يشتمل على كيفية تكون الدولة والملك ومدى أهمية العصبية في ذلك، سواء أكانت العصبية قائمة على صلة الدم أو المصاهرة أو الولاء أو الجوار أو غيرها.
- 5. علم الاجتماع الحضري، والذي يتناول البلدان والأمصار وسائر العمران، وما يتعلق بذلك من ظواهر اجتماعية.
- 6. علم الاجتماع الاقتصادي، وعلم الاجتماع الصناعي، وهما يشملان مسائل المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وما يرتبط بذلك كله من الظواهر الاجتماعية.
- 7. علم اجتماع المعرفة، ويشتمل على العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه والظواهر الاجتماعية المرتبطة به.

وعلى ذلك يمكن القول بأن ابن خلدون قد أكد على ضرورة وجود علم مستقل يتناول قضايا المجتمع الإنساني والعمران البشري, وحدد موضوع هذا العلم ومجاله ومنهجه، وأقام بناؤه على أساس من الخبرة والتجربة الإنسانية الواسعة النطاق، والتي كادت أن تشمل معظم أقطار العالم العربي بدءاً من الأندلس وحتى مصر والشام والحجاز.

أسباب تأسيس ابن خلدون لعلم العمران البشري:

يعتبر ابن خلدون هو المؤسس الحقيقي لهذا العلم والذي أسماه العمران البشري، والذي وضع مبادئه في مقدمته المشهورة بـ "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر."

تعريف علم العمران " الاجتماع" عند ابن خلدون

يعرفه ابن خلدون علم العمران (الاجتماع) في مقدمته بأنه "ما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وأثر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال،... وما لذلك من العلل والأسباب"

أسباب نشأة علم العمران "الاجتماع" عند ابن خلدون

وقوع المؤرخين في الكثير من الأخطاء نتيجة تعصبهم لمذاهب معينة وكذلك الجهل بالقوانين الاجتماعية السائدة.

وكان ابن خلدون أول ما وضع المبادئ العامة التي يرتكز عليها علم الاجتماع.

المقولات النظرية لابن خلدون:

- الانسان ليس اجتماعي بالفطرة بل بالاحتياج (التكامل ، تقسيم العمل)
- قيام الدولة احد ضرورات العيش المشترك لتنظيم وحفظ الحقوق والواجبات (النظام الاجتماعي)
- يؤكد بن خلدون على أهمية الدين فى نشأة الدولة وضمان تماسكها وانصياع الناس لها لان الدين يدعو للتسامح ويقضى على التنافس بين العصبيات المختلفة.(الثقافة)
- تقوم الدولة عند بن خلدون على العصبية والتى تعنى ميل الافراد لأقاربهم وعشائرهم ووقوفهم مع اهلهم وعشيرتهم ضد من يريد الحاق الضرر بهم، العصبية بمعنى التلاحم والتعاون والمناصرة تنشأ أيضا عن طريق الولاء والحلف(التماسك الاجتماعي)
- تنوع المجتمعات واختلاف خصائصها (المجتمع البدوي والمجتمع الحضري) تصنيف المجتمعات.

نظرية ابن خلدون في التغير الاجتماعي:

- المجتمع أو الدولة تمر بمراحل التطور كدورة الحياة عند الانسان (التغير الاجتماعي).
- تحيا الدولة ثلاثة اجيال متعاقبة (120) سنة:
- الجيل الاول : يكون معتادا عيش الشظف والخشونة وتتحكم فيه العصبية بشكل كبير ويكون هذا الجيل الاول (مؤسس الدولة)مرهوب الجانب مما ينتج عنه تسليم الناس له بالملك.
- الجيل الثانى : من الحكام يأتى بعد اربعين سنة وقد تحول حال الجماعة الى بزخ وترف بعد ان يكونوا قد تحضروا وانتقلوا من حالة البداوة الى مرحلة حالة الرفاهية واليسر الا انه رغم ذلك يظل هذا الجيل معتزا بأمجاد سابقيه ومحافظا على ملكهم .
- الجيل الثالث: يأتى وقد تميز خلاله الحكام بالدعة والترف وينسوا حياة الخشونة ويفقدوا العصبية بسبب ما أصبحوا فيه من جاه وسلطان وينتشر فيهم الكسل والجبن ثم الضعف والهزال فيعجزون

عن محاربة أعدائهم وتنهار دولتهم عند أول هجوم عليها وتفنى لانها بلغت فى الجيل الثالث مرحلة الهرم بسبب تنعم حكامها وبفنائها تقوم دولة أخرى تحكمها فئة من العصبية الاقوى----

وهكذا

الفصل الثالث
نشأة النظرية الاجتماعية في اوربا الغربية

عوامل نشأة النظرية الاجتماعية

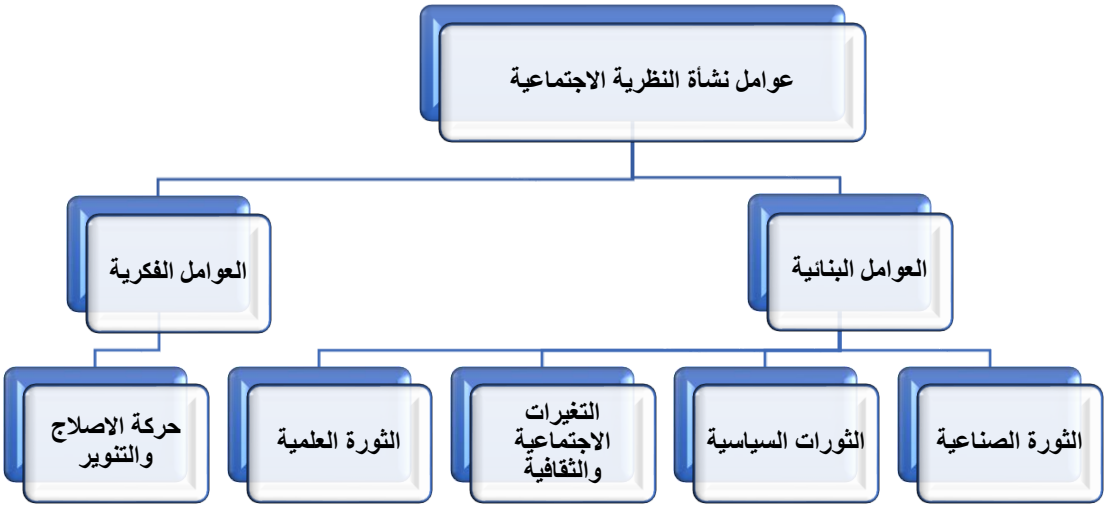

أولاً: العوامل البنائية لنشأة النظرية الاجنماعية الحداثية:

من الملاحظ أن هناك بعض تعريفات الحداثة التي اهتمت بإبراز البعد الزمني للحداثة علي نحو دقيق إلي حد كبير ، ومن تلك التعريفات تعريف سان هاند Sean Hand الذي يشير إلي أن الحداثة هي فلسفة المجتمعات الغربية وثقافتها في الفترة من 1850 م إلي 1950م ؛ أي الفترة المتفجرة التي حقق فيها مجتمع ما بعد الثورة والمجتمع البرجوازي إنجازات هائلة تكنولوجية وفكرية ، وقاسى ويلات حربين عالميتين ، وشهد تحولاً حضاريًا كاملاً في ظروف المعيشة والعلاقات الاجتماعية، وعكست فلسفة هذه

الفترة وثقافتها التجريب والتغريب اللذان كانا السمتين المميزتين لهذه الأشكال الجديدة للمعيشة والتفكير [1].

في القرن التاسع عشر كثيراً ما يوصف علم الاجتماع بأنه " علم الأزمة " ويعكس هذا الوصف جانباً كبيراً مما نريد ان نستخلصه من هذه الفقرة ، ويعنى ذلك أنه ظهر من خلال الأزمات الثقافية والاجتماعية التي صاحبت اختفاء النظام القديم وظهور الرأسمالية الصناعية ، والتي صاحبت نشأة تيارات سياسية جديدة ثائرة على النظام القديم ، واختفاءالنظام القديم وظهور التيارات السياسية الجديدة الثائرة على النظام يشير إلى تحولات اقتصادية وسياسية لم تتم في فراغ ، وإنما أذكتها ثورتان غيرتا وجه أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ومايزال تأثيرهما عالقاً بالفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي وما يقابل ذلك من مستويات امبيريقية حتى يومنا هذا : الثورة الصناعية والثورة الفرنسية ، فقد كانت التغيرات التي أحدثتها كل ثورة من هاتين الثورتين عنيفة إلى حدٍ بعيد . فكل منهما ذات طبيعة فجائية ، واحدثت هذه الطبيعة الفجائية تناقضاً بين القديم والجديد أو بين الحاضر والماضي بحيث يمكن أن نقول أن أيا من هاتين الثورتين يُعد أسطورة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى .

بالرغم من أن **الثورة الصناعية** كانت ثورة انجليزية في المحل الأول إلا أن تأثيرها كان طاغياً على أوروبا كلها . فقبل أن تنتشر كلمة " الثورة الصناعية " نفسها كان المفكرون في ألمانيا وفرنسا يتحدثون عن النزعة الفردية – التي أذكتها الثورة الصناعية – والتي أدت إلى قلب المجتمع الانجليزي رأساً على عقب . كما أن كتاب

([1]) سان هاند، فلسفة ما بعد الحداثة،في اوليفر ليمان،مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين:أفاق جديدة للفكر الانساني،ترجمة مصطفى محمود محمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، مارس 2004،ص 142.

آدم سميث Smith المنشور عام 1776 قد أعطى تحذيراً مسبقاً لما ستكون عليه أمور الثورة الصناعية في أوروبا .

ولكن ما هي التحولات التي أحدثتها الثورة الصناعية والتي كان لها ذلك التاثير على الفكر ؟ يحصر روبرت نيسبت Nisbet هذه التحولات فيخمسة أبواب رئيسية – تغير ظروف العمل ، وتحول الملكية ، وظهور المدينة الصناعية ، والتحولات التكنولوجية وظهور نسق المصنع فيما يتعلق بظروف الطبقة العاملة ، فلأول مرة في تاريخ أوروبا تصبح الطبقة العاملة موضع الاهتمام الأخلاقيوالتحليلي وذلك بسبب ماأصابها من تفكك طرأ على ظروف العمل من تغير . فقد تدهورت ظروف العمل, وبدأ العملى ينفصل عن الأ طر القديمة التى تنشأ فيها وهى الطائفة والقرية والأسرة وتقلصت مكانة العامل العادى . كما ان النظام الجديد قد حطم المزارعين الصغار كلية بحيث ظهر الفرق جلياً بين السادة والعبيد . أما الملكية فقد اصابها التفتت وضعف دعائمها . فلقد كانت الملكية من الأسس التى لا يمكن الاستغناء عنها لقيام الاسرة والكنيسة , والدولة , وكل الجماعات الاخرى فى المجتمع .ولكن الثورة الصناعية حطمت هذا الاساس وأظهرت أفاقاً جديدة من الملكية :مثل الملكية الصناعية , والنمط المجرد وغير المجرد من الملكية والذى يمثله المشترون والبائعون فى الاسواق , والتى ظهرت فيها شخصية المضاربspeculator .وامتد تأثير الثورة الصناعية إلى المدينة فقد أدى ازدياد الحضرية urbanism إلى اضطراب المدينة وثقافتها مما أثر على الظروف السيكولوجية للقاطنين بها ,وجعلتهم يعيشون حالة من الإغتراب او الانعزال الفكرى . أما الموضوعان الآخران (التكنولوجيا ونظام المصنع) فهما مترابطان أيما ترابط . فلقد كان للتكنولوجيا ونظام المصنع أثار جسام على العلاقة بين الرجل والمرأة وعلى تفكك العائلة التقليدية ,والإنفصال الثقافى بين المدينة والريف .ليس من الغريب إذن أن يذهب بعض الباحثين

إلى أن الثورة الصناعية لم تكن صناعية من حيث ان آثارها ونتائجها لم تقتصر على إطار الإنتاج الصناعى وحدة بل امتدت إلى كل جوانب المجتمع. فقد كان لابد من توفر كثير من الشروط . والظروف الاجتماعية والقانونية (مثل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ,وتحرير الايدى العاملة ,وتحلل نظام الطوائف القديم) قبل أن تقوم للنظام الرأسمالى قائمة .

فقد حطم التطور الصناعى الحواجز والضوابط القديمة ,وخلق مشاكل جديدة مثل الفقر والازدحام ,وسوء الاحوال الصحية فى المدن السريعة النمو وتفكك العائلة من خلال تشغيل المرأة والاطفال فى المصانع .ويضيف جولدنر أن الثورة الصناعية فى نهاية القرن الثامن عشر قد خلقت موقفا جوهريا بالنسبة للدور النسبى للجوانب الاخلاقية وغير الاخلاقية فى تحقيق التضامن الاجتماعى .فالتكنولوجيا الجديدة قد أدت إلى تعاظم دور الجوانب غير الاخلاقية .وحدوث تغيرات تكنولوجية مستمرة وعاجلة يعنى أن التغيرات قصيرة المدى والتى تحدث لاعادة التكيف مع التغيرات التكنولوجية البسيطة لم تعد تكفى وتسبب ذلك فى أحداث فجوة أو ثغرة بين المصادر التكنولوجية والاخلاقية التى تحقق التضامن فى المجتمعات الصناعية .

أما **الثورة الفرنسية** التي تأججت عام 1789 فقد وصل تأثيرها على المجتمع الأوروبي إلى الحد الذي ذهب معه البعض بأنها ثورة من عند الله ، ويذهب روبرت نيسبت إلى أنه باستثناء الثورة البلشفية في القرن العشرين فليس هناك حاثة اثارت العاطفة وأشعلت الفكر وكانت الساس للكثير من الأراء والاجتهادات فيما يتعلق بالإنسان ومستقبله غير الثورة الفرنسية . ولا تقل الثورة الفرنسية عن الثورة الصناعية في تحطيمها للمعتقدات والمشاعر التقليدية ، بل إن الثورة الفرنسية تحقق لها ما لم يتحقق للثورة

الصناعية حيث وجدت أنصاراً وأتباعاً جعلوا منها ثورة أيديولوجية في تاريخ الغرب ، إلى جانب أنها كانت تملك عنصر المفاجأة والانتشار الدرامي الواسع النطاق والذي لم تحققه الثورة الصناعية إلا على استحياء ، والطابع الأيديولوجي للثورة الفرنسية هو الذي جعل لها كل هذا التأثير ، ولقد كان الجانب الأيديولوجي واضحاً في إعلان حقوق الإنسان ، لقد ارتبطت هذه الثورة بتغيرات عميقة الجذور في في كل شئون الحياة ، في السياسة والقانون وحقوق الملكية والدين ، فقد قبل الثوار دون تحفظ مبادئ عصر التنوير وحاولوا أن يُعيدوا تنظيم المجتمع وفق مبادئ عقلية خالصة .

ويشير جولدنر غلى أن الثورة الفرنسية قد خلقت طبقة وسطى طورت مبادئالمنفعة في صراعها ضد المعايير الإقطاعية والادعاءات الأرستقراطية للنظم القديمة البالية ، حيثكانت حقوق الفرد تتحدد من خلال المكانة ، والطبقة التي ينتمي إليها ، والمولد ، والجماعة القرابية ، أي في ضوء " الانتماء " وليس في ضوء " الانجاز " مقابل ذلك بدات الطبقة الوسطى الجديدة ، تضع ذوي الكفاءات والمهارات المكتسبة من خلال الإنجاز الفردي ، بدأت تضعهم في مراتب عالية ، فمعيار المنفعة عند هذه الطبقة يعني أن المكافأة يجب أن تمنح للأفراد حسب إسهامهم وعملهم الفردي . فمقدار فائدة الأفراد تحدد إلى درجة كبيرة من خلال المكانة التي يرتفعون إليها والسلطة التي يأخذون بزمامها . فتلك أمور لا يمكن اليوم أن تحددها الامتيازات. وهكذا نجد الب سايز Abbe Sieyes يُعلن عشية الثورة الفرنسية " فلتحطم كل النظم ذات الامتيازات الخاصة ، فالأمة الأن – تستطيع ان ترتفع فوق هذه الامتيازات وتتجاوزها .. والطبقة ذات الامتياز تعتبر بالتأكيد طبقة غريبة عن الأمة لاتفعل شيئاً، بل حدث أن اتُهم المناضلون والثوار أعضاء الطبقة الوسطى الأغنياء بأنهم يستفيدون من الدولة وأنهم كسالى لا عمل لهم .

يلخص ستيورات هول أهم الخصائص المميزة للمجتمع الحديث علي النحو التالي:

سياسًيا: اتسم المجتمع بسيادة السلطة السياسية العلمانية علي الدولة القومية الجديدة، وتهميش تأثير الكنيسة وعزل الدين عن التدخل في أمور الدولة والأمور السياسية عامة".[2]

اقتصاديًا: تميز المجتمع الحديث بنمو الممارسات الرأسمالية والإنتاج من أجل الربح والاعتماد علي الابتكار التكنولوجي والتقسيم المتزايد لقوة العمل المستأجرة [3]، "ولقد استبدلت الاقتصاديات الإقطاعية والاقتصاديات الأخرى قبل الرأسمالية باقتصاد يقوم في النظام النقدي (المالي) المتقدم بدور الوسيط في التبادل (التجارة) القائم علي الإنتاج الكبير واستهلاك السلع نيابة عن السوق وانتشار الملكية الخاصة ، وتراكم رأس المال علي أساس منتظم طويل المدى.

اجتماعيًا: ذبول النظام الاجتماعي التقليدي (الإقطاعي) ونمو تقسيم جديد للعمل وظهور طبقات جديدة (البرجوازية . البرولتيتاريا) وظهور علاقات متغيرة وإن كانت لا تزال قائمة علي نظام سلطة الأب بين الرجال والنساء.

دينيًا: ضعف الدين وظهور ثقافة مادية علمانية.

فكريًا: ظهور الطريقة العقلانية العلمية في تصنيف العالم والنظر إليه.

([2]) مايك أودونيل،تمهيد في علم الاجتماع ، ترجمة مصطفى خلف، قراءات معاصرة في علم الاجتماع،القاهرة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية،2002،ص 118.

([3])Mel Churton ,Theory and Method, London, Macmillan press,2000, P131.

ثقافيا: نشوء مجتمعات محلية جديدة بعضها عرقية أو قومية تتحدي المجتمع المسيحي التقليدي ، ولقد طورت الأمم الجديدة رموزها الخاصة بها وتفسيراتها للتاريخ، وهي عملية زادت قوتها في القرن التاسع عشر وتبني الأمم الحديثة هويتها وتقاليدها الخاصة بطريقة انتقائية لتناسب أهدافها الخاصة"[4].

ثانياَ: العوامل الفكرية لنشأة النظرية الاجتماعية (حركة التنوير)

تمثل حركة التنوير – في رأي كثير من الباحثين – تطوراً هاماً في حلقة التطورات التي مر بها علم الاجتماع. و قد تميزت حركة التنوير بالاعتقاد في أن الناس يمكنهم فهم الكون و السيطرة عليه بواسطة العقل و البحث الإمبيريقي.

كل هذه التغيرات البنائية التي اصابت المجتمع الأوروبي من جراء الثورة الفرنسية والصناعية إلا عن اقتناع بأن هذه التغيرات قد ولدت من الأفكار مما أثرى الفكر في القرن التاسع عشر، وكانت قمة هذا الثراء الفكري انبثاق علم الاجتماع على ما صاحب هذه النشاة من دفاع عن النظام القائم وحصره داخل حدود الاتجاه المحافظ ، ولكن كيف حدث ذلك ؟ هذا هو السؤال الهام.

هنا ننتقل من دراسة الجذور البنائية إلى الجذور الفكرية لانبثاق علم الاجتماع . لقد كانت التغيرات التي أحدثتها الثورتان مجالاً لجدل كثير من جانب الراديكاليين والليبراليين والمحافظين. وإذا كانت الكلمات تنطق ببراهين أعلى صوتاً من كل الوثائق على ما يذهب اليه هوبسباون Hobsbawn فان الفترة التي امتدت من الربع الأخير من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تُعد من أغنى الفترات في تكوين الكلمة في التاريخ . نستوعب هذه الحقيقة جيداً إذا ماخترنا عينة صغيرة من المفاهيم

([4]) مايك أودونيل، مرجع سابق، ص 118.

التي اخترعت في هذه الفترة أو عدلت في ضوء معانيها الحاضرة . من هذه المفاهيم : الصناعة ، والديموقراطية ، والطبقة ، والطبقة الوسطي ، والأيديولوجيا، المثقف والنزعة العقلية ، والجماهير، والنزعة التجارية ، والبروليتاريا ، والنزعة الكلية ، ونزعة المساواة ، والليبرالي ، والمحافظ والعالم ، والنفعي والبيروقراطية والرأسمالية ، والأزمة .. وغيرذلك كثير .

تكمن جذور الاتجاه الراديكالي في فلسفة عصر التنوير في القرن السابع عشر . لقد ربط فلاسفة هذا العصر بنجاح بين التجربة والعقل في حل مشاكل الإنسان . فالكون في نظرهم محكوم بقوانين مترابطة ، ويمكن أن يتحول الإنسان والمجتمع إلي الأحسن من خلال تنظيم البيئة الإجتماعية والسياسية وفق هذه القوانين . إن الحركة الفلسفية في هذاالعصر التي بدأها روسو وهيوم عبرت عن تحول من التأكيد علي أهمية الكون الميكانيكي إلي التأكيد علي الطابع الخلاق للشخصية . فروسو انطلق إلي حد ما من موقف مثالي ، وقد كان أكثر إيماناً من معاصريه بإعادة بناء المجتمع علي مبادئ عقلية مدركة . كما أن الإرادة الأخلاقية الداخلية والوعي كانت من الأشياء الهامة –في نظره – في تحرير الإنسان . أما ديفيد هيوم فقد أدي فحصه النقدي لقضايا هذا العصر إلي إبراز الدور الخلاق للعقل ، وإلي رفض الفهم الميكانيكي الذي يعد طريقة في التفكير مستهجنة تفتح الطريق أمام الكثير من الإجتهادات ، وقد كانت آراء روسو وهيوم هي الساس الذي قامت عليه فلسفة كانت العقلية.

هذه الآراء هي التي أذكت الثورة الفرنسية ، ومن ثم تمسك الثوار بها واتخذوها دعامة لتقويض النظام القديم وبناء نظام جديد يمجد دور العقل ودور الفرد ويحلله من روابطه القرابية والإجتماعية . وهي بهذا خلقت جيلاً جديداً من الراديكاليين

يحيي أفكار عصر التنوير . من هؤلاء علي سبيل المثال الإنجليزي وليم كوبت Cobett ولكن ما يفرق بين راديكالية جيل الثورة الفرنسية وراديكالية عصر التنوير أن تلك الأخيرة كانت مرتبطة إلي حد كبير بالإطار الديني . صحيح أنه كانت هناك اشارات إلي الفقر والمعاناة ، ولكن هذه الإشارات كانت تظهر في صورة دينية . أما الخط الرئيسي لراديكالية القرن التاسع عشر فقد كان علمانياً . وإذا كانت الرغبة في الخلاص لم تختف ، فقد اختفت علي الأقل صورتها المسيحية . وظهرت رغبة ثورية في الخلاص تنبعث من الثقة في القوة المطلقة التي يمكن أن تحرر الإنسان من مظاهر عدم المساواة ولكن أياً كان جوهر الخلاف بينهما، فإن كلاً منهما قد أولي أهمية كبيرة لدور العقل ودور الفرد وعمله الخلاق ، لا دوراً لجماعة وماتفرضه من روابط وسلطات قائمة علي المكانة الموروثة وليس الإنجاز . والثورة في نظرهم هي المصدر الأساسي للحرية . ومن خلال هذا الفكر الراديكالي ظهرت المذاهب الإشتراكية التي أخذت تتطور حتي يومنا هذا.

أما الليبرالية فإنها تنادي باستقلال الفرد وحريته وحقوقه السياسية والمدنية والإجتماعية. ويختلف الليبراليون فيما بينهم من حيث هذه الحريات فالليبراليون الإنجليز يهتمون بتحرير الإنتاجية الإقتصادية من ربقة القانون والعادات ، أما الليبراليون في فرنسا فإنهم يهتمون أساساً بتحرير الفكر من النزعة الأكليريكية . ولكن بصرف النظر عن هذه الإختلافات فإن الليبراليين يتفقون علي عدة مبادئ منها: أولاً : قبول النظام الأساسي للدولة والإقتصاد القائم ، فهم لايرون في الثورة المصدر الأساسي للحرية ، بالرغم من تأييدهم لها.

ثانياً : الإعتقاد بأن التقدم يعتمد علي تحرير عقل الفرد وروحه من الروابط الدينية والتقليدية للنظام القديم .

يتضح من ذلك أن الليبراليين في القرن التاسع عشر قد ساروا – مثلهم مثل الثوار تماماً – علي نهج علماء عصر التنوير في إعلاء الفردية ذات الطبيعة المستقلة . ورغم اهتمام بعضهم بالنظم والتقاليد مثل أنصار النزعة المحافظة تماماً ، إلا أن الاهتمام يرتبط بالدرجة التي تدعم بها هذه النظم والتقاليد النزعة الفردية . فاهتمامهم الأساسي كان منصباً علي حرية الفرد وليس علي السلطة الإجتماعية . وإذا كان الراديكاليون قد اهتموا بأمور السياسة والعمل السياسي أكثر من الليبراليين، فإن الاثنين يتفقان في تأثير كل منهما بأفكار عصر التنوير ، وفي الإعلاء من شأن الفرد العاقل المستقل ذاتياً ، أن كلاً منهما قد حاول أن يعيد صياغة النزعة الفردية بطريقة خاصة .

أما الاتجاه المحافظ Conservatism فهو عكس الاتجاهين السابقين عل طوال الخط ، فإذا كان الاتجاهان السابقان (الراديكالي و الليبرالي) قد تأثر بأفكار عصر التنوير ، فإن الاتجاه المحافظ قد عارض هذه الفكار معارضة شديدة . وإذا كان الاتجاهان السابقان قد أثرا في الثورة وتأثرا بها فإن الاتجاه المحافظ كان يناهض الثورة ويعتبر نزعة التحديث التي جاءت بها الثورة شراً أي شر . إنه يهاجم كل ما تاتي به الثورة وتدافع عنه ، في نفس الوقت يدافع عن كل شئ تهاجمه الثورة . ولأن هذا الاتجاه هو الذي أثر في الفكر السوسيولوجي فسوف نعرض له بالتفصيل بعض الشيئ .

نهج المحافظون نهجاً رومانسياً تشاؤمياً إزاء الأحداث التي ولدتها الثورة الصناعية والثورة الفرنسية . وتنعكس تلك الرومانسية في أنهم بالغوا في دور العاطفة والخيال محاولين إعادة إحياء الدين والشعر والفن ، مع إهمال دور العقل في تنظيم المعرفة والمجتمع . وحاولوا البحث عن جذور النظم القائمة بدلاً من محاولة تغييرها وفق أسس عقلية ، واهتموا بمفاهيم مثل الجماعة، المجتمع المحلي، والمة في مقابل اهمال

للمفاهيم الخاصة بالنزعة الفردية والنزعة العقلية . ولم تقتصر هذه الروح الرومانسية علي الفلسفة بل امتدت لتظهر في مجالات كثيرة كالأدب، والفن،والموسيقي، والدين، والكل يهدف إلي تحرير العاطفة والخيال من القواعد والأشكال الصارمة التي فرضتها فلاسفة عصر التنوير، وتبناها الثوار والليبراليون.

ويهمنا أن نستقصي هذه النزعة في مجال الفلسفة ، فالفلاسفة المحافظون هم الذين وضعوا الأساس المعرفي الذي انبثق منه علم الإجتماع . وأهم هؤلاء الفلاسفة المحافظون بيرك ودي ميستير وبونال وهيجل . ولنستعرض راي أحدهم وليكن بيراك ثم نستخلص في النهاية السمات العامة لهذا الاتجاه المحافظ. لقد ساهمت آراء بيرك في تكوين فلسفة اجتماعية وسياسية محافظة ، ليس في بريطانيا وحدها ولكن في كل القارة الأوروبية .

أدان بيراك الثورة الفرنسية ، لما أدت إليه من تفكك وفوضي ، واستبدال القيم المقدسة غير الرشيدة بالمعايير الشخصية القائمة علي التعاقد والمنفعة ، وتقلص السلطة السياسية والدينية والإجتماعية. وفي نقد الثورة الفرنسية مد بيراك الثورة الأمريكية لأن الأمريكيين حاولوا أن يحافظوا على الطابع العضوي للمجتمع ، فبيراك كان ينظر إلى المجتمع على أنه كائن عضوي ، وإن كانت اجزاؤه لا تنظم بنفس الكمال الموجود في الكائن العضوي ، ذلك لأن الكائن الاجتماعي تتغير بعض اجزاؤه بسرعة أكبر من اجزاء أخرى ، وعندما يحدث شئ من هذا القبيل لابد أن يتم إعادة توازن المجتمع في خلال الإصلاح ، وليس الثورة . وعندما يقدم بيراك فهمه العضوي للمجتمع فإنه بذلك يرفض الفهم العقلي المجرد الذي قدمه فلاسفة عصر التنوير والذي ينحصر في وجود قوانين طبيعية عامة يمكن اكتشافها عن طريق العقل . واعتقد بيرك أن الثوار في تطبيقهم

لهذا الاتجاه ، قد اعتبروا المجتمع مثل الآلة معتقدين أنه يمكن رفع أجزاء وتغييرها بأجزاء أخرى جديدة ، ومن ثم فقد هاجموا النظم القديمة المتكاملة مع النظام العام ، وحاولوا أن يغيروها وفق قواعد مجردة ، لقد اعتبروا – يقصد الثوار – الفرد أهم من الأمة والدولة ، والجزء أهم من الكل ، وعالجوا الدولة على انها علاقة تعاقدية بدلاً من ارتباطها العضوي بالنظام العام .

ويرى بيراك أن اعتبار الدولة مجرد عقد يجعلها تنحل بمجرد أن يقرر المتعاقدون أنها لا تشبع مصالحهم . أو عندما يختلف الأفراد . فالدولة تعتبر وحدة عضوية وجزء متكامل مع الجماعة القومية ، وربما ينعكس ذلك في كلمات بيرك " أن الدولة لا تعتبر مُشَكلة بين الأحياء فقط ، ولكن بين الموتى والذين لم يولدوا بعد ."

ويقصد بيرك من تلك العبارة بطبيعة الحال ، ذلك الترابط القائم في المجتمع بين الماضي والحاضر والمستقبل . كما أنها توحي بعدم اهتمامه بالفرد، فاهتمامه كان مُنصباً على الجماعة " فليس للفرد حقوق مجردة ". على العكس من ذلك تماماً، فإن الفرد يملك فقط هذه الحقوق والواجبات التي تميز جماعة معينة، والتي يكتسبها بحكمولادته فيهذه الجماعة، والجماعة لا توجد في لحظة معينة ، ولكنها سلسلة لا نهائية من الأجيال، يرث كل جيل عن الجيل الذي يسبقه ولا يعتبر الفرد إلا حلقة في هذه السلسلة .. فليس لجيل الثورة غذن الحق في أن يحطم العادات والنظم التي تتعلق باجيال سابقة واجيال أخرى قادمة . وليس لهم الحق في أن يعتبروا أنفسهم سلطة مسيطرة على ماهو متعلق بالماضي والمستقبل .فكل جيل يجب أن يضيف إلي ما أنجزه الجيل السابق , وينقل التراث كاملاً لأصحابه."

هكذا تعكس اراء بيرك النزعة المحافظة التي اعتبرت أن التغيرات الاجتماعية التي تبعت الثورة الفرنسية قد قللت من شأن النظم الأساسية وحطمتها ، وكان من نتيجة ذلك فقدان الاستقرار السياسي . وأرجع المحافظون هذه النتائج إلى بعض الأحداث السابقة في التاريخ الأوروبي والتي ادت – حسبما يعتقدون – إلى إضعاف مستمر لنظام العصور الوسطى وبلغت ذروتها في تفجير الثورة . واشاروا في هذا الصدد إلى المذهب البروتستانتي والرأسمالية ، والعلم على أنها القوى الرئيسية التي أدت إلى ذلك لقد اضفى المحافظون الطابع المثالي على النظام العام في العصور الوسطى ، وذهبوا إلى أن العصر الحديث يحتاج إلى استعادة هذا النظام بالضرورة .

في أثناء هذا الجدال مع الثوار ، ومع فكر عصر التنوير ، ومن خلال هذه الروح الرومانسية التي تستهدف استعادة نظام العصور الوسطى ، طور المحافظون عدداً من القضايا تفسر طبيعة المجتمع . ويحصر روبرت نيسبت الانتقادات الرئيسية التى نبعت من كتابات المحافظين الأوائل في ثلاثة اتجاهات رئيسية . يرتبط الأول بمفهوم الجماهير Masses ويعني السكان المنفصلين انفصالاً أخلاقياً واجتماعياً عن طريق القوى السياسية التي نادى الليبراليون والراديكاليون في القرن التاسع عشر على أنها تقدمية . أما الاتجاه الثاني فيرتبط بمفهوم الاغتراب Alienation ويعنى حالة الاحباط وعدم الشعور بالأمن التي تنتشر بين الأفراد نتيجة للتغيرات الفكرية والأخلاقية التي نظر إليها أنصار الاتجاه العقلي على أنها تؤدي إلى التحرر من شبكة العادات القديمة . أما الاتجاه الثالث فهو الاتجاه المرتبط بمفهوم القوة Power ويعني القوة التي تنبع من وجود الجماهير المكونة من أفراد منفصلة تحركهم قوى مركزية .

ملخص الفصل

الظروف البنائية للنظرية الاجتماعية الكلاسيكية.

الثورات السياسية: حيث تعد السلسلة الطويلة من الثورات السياسية التي بدأت بالثورة الفرنسية في عام 1798 واستمرت خلال القرن التاسع عشر العامل المباشر وراء بدء التنظير في علم الاجتماع لما لها من أثر كبير في تاريخ البشرية حيث فرقت بين عصرين، وأسست لمبادئ جديدة شكلت الأسس التي قام عليها النظام السياسي الحديث لا في فرنسا وحدها وإنما في دول كثيرة من العالم.

الثورة الصناعية ونشأة الرأسمالية: تعادل الثورة الصناعية الثورة السياسية من حيث الاهمية في تشكيل نظرية علم الاجتماع وقد بدأت هذه الثورة في إنجلترا ثم شملت مجتمعات غربية عديدة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتجسدت الثورة الصناعية في تطورات عديدة مترابطة بلغت ذروتها في تحول العالم الغربي من نسق زراعي إقطاعي إلى نسق صناعي رأسمالي.

التحضر: حيث كان من الآثار التي ترتبت على الثورة الصناعية ان اتجهت اعداد كبيرة من الناس في القرن التاسع عشر والعشرين الى النزوح من مواطنها الريفية للإقامة في المناطق الحضرية مما ترتب عليه العديد من المشكلات كالازدحام والتلوث والضوضاء وقد دفع ذلك علماء الاجتماع إلى دراسة هذه المشكلات الحضرية.

التغير الديني: كان للتغيرات الاجتماعية الناجمة عن الثورات السياسية والثورة الصناعية والتحضر تأثير ضخم على صورة الدين عند الشعب والفصل بين الدين والدولة والحكم, والمطالبة بالعلمانية.

التقدم العلمي: صادف تطور النظرية في علم الاجتماع ازدياد الاهتمام بالعلم, ولذلك فقد انشغل علماء الاجتماع منذ البداية بالرغبة في تأسيس علم الاجتماع على غرار العلوم الفيزيقية, والبيولوجية الناجحة.

العوامل الفكرية وراء نشأة النظرية الاجتماعية:

حركة الاصلاح والتنوير: تمثل حركة التنوير – في رأي كثير من الباحثين – تطوراً هاماً في حلقة التطورات التي مر بها علم الاجتماع. و قد تميزت حركة التنور بالاعتقاد في أن الناس يمكنهم فهم الكون و السيطرة عليه بواسطة العقل و البحث الإمبيريقي.

ولقد أدت التغيرات الاجتماعية (البنائية) التي شهدها المجتمع الأوربي في آواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين إلى ظهور ثلاث تيارات فكرية انعكس أثرها على النظرية الاجتماعية حتى وقتنا الحاضر.

التيارات الفكرية (الأيديولوجية) في النظرية الاجتماعية:

الاتجاه الراديكالي: تكمن جذور الاتجاه الراديكالي في فلسفة عصر التنوير في القرن السابع عشر. لقد ربط فلاسفة هذا العصر بنجاح بين التجربة والعقل في حل مشاكل الإنسان، من أبرز فلاسفة وعلماء التنوير: جان جاك روسو– ديفيد هيوم.

الاتجاه الليبرالي: تنادي الليبرالية باستقلال الفرد وحريته وحقوقه السياسية والمدنية والاجتماعية ويتفق الليبراليون على عدة مبادئ أهمها قبول النظام الأساسي للدولة والاقتصاد القائم فهم لا يرون في الثورة المصدر الأساسي للحرية ، بالرغم من تأييدهم لها، الاعتقاد بأن التقدم يعتمد على تحرير عقل الفرد وروحه من الروابط الدينية والتقليدية للنظام القديم.

الاتجاه المحافظ: أما الاتجاه المحافظ فهو عكس الاتجاهين السابقين ، عارض أفكار عصر التنوير . كان يناهض الثورة ويعتبر نزعة التحديث التي جاءت بها الثورة شرًا أي شر، نهج المحافظون نهجًا رومانسيًا تشاؤميًا إزاء الأحداث التي ولدتها الثورة الصناعية والثورة الفرنسية،أهم الفلاسفة المحافظين إدموند بيرك وجوزيف دي ميستر ولويس بونال وهيجل.

مراجع الفصل

- ليلى عبد الوهاب، د ت، النظرية الاجتماعية الكلاسيكية والمعاصرة
- مروة صلاح الدين عبد الله, النظرية والمنهج في سوسيولوجيا ما بعد الحداثة دراسة تحليلية, رسالة دكتوراة, كلية الآداب, جامعة القاهرة, 2010.

الفصل الرابع:
النظرية الاجتماعية:السمات والقضايا.

سمات النظرية السوسيولوجية في مرحلة الحداثة.

التحليلات الكلية:

يزعم ليوتار أن أكثر ملامح الحداثة وضوحًا أولوية العام Universal ؛أي ما أشار إليه بمرجعيات التفسير الأساسية والتي أطلق علها الحكاية Narrative التي تجسد وتشمل كل التفسيرات الفرعية الأخرى معتمدة في ذلك علي منظور متعال يصوغ النسق موضع التفسير علي نحو أحادي المعني[5]، ومن الملاحظ أن تلك العمومية انعكست بشكل عام على النظرية السوسيولوجية، فاتسمت تحليلاتها بطابع كلي أو شمولي مثل "النظريات الماركسية والوظيفية التي قدمت نماذج للعالم الاجتماعي باعتباره نسقا كليا يجدد نفسه، وحاولت تفسير كل شيء يتعلق بالحياة الاجتماعية"[6].

ولعلي أبرز الأمثلة المجسدة لذلك الطابع الكلي الشمولي للنظرية السوسيولوجية نظرية ماركس حول بنية المجتمع وتطوره التي اعتمدت علي مسلمتين أساسيتين:" أولي المسلمات تنتمي للنزعة الحتمية الاقتصادية التي تذهب إلي أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره... فتنظيم الإنتاج الذي يسميه ماركس البناء الاقتصادي للمجتمع لا يحدد فقط البناء الفوقي الكلي بل يشكله؛ أي أنه يشكل التنظيم السياسي والقانوني والدين والفلسفة والأدب والعلم والأخلاق.

وتتصل المسلمة الثانية في علم الاجتماع الماركسي بميكانزمات التغير الذي ينبغي أن يفهم وفقا لهذه النظرة في ضوء المراحل الثلاث الأزلية . الإثبات Affirmation أو الموضوع Thesis والنفي Negation أو نقيض الموضوع Antithesis ثم تصالح الأضداد أو مركب الموضوع Synthesis . باعتبار أن كل نسق في الإنتاج الاقتصادي يبدأ بحالة الإثبات حيث يكون أكثر النظم الممكنة كفاءة في ذلك الوقت، لكنه متي عُزز اجتماعيا يصبح عقبة أمام تطبيق الاختراعات التكنولوجية

([5])David Clippinger, Op.Cit.,P 252.

([6]) مايك أودونيل، مرجع سابق، ص، 176.

والإفادة من الأسواق الحديثة والمواد الخام ولا يمكن للتطور التاريخي أن يقف عند هذه المرحلة ، فالنظام المُعزز اجتماعيا ينبغي القضاء عليه بواسطة ثورة اجتماعية تخلق نظامًا جديدًا للإنتاج مركب من القديم والجديد" [7].

ويؤكد ماركس أن هناك طبقتين رئيسيتين في أي مجتمع من المجتمعات تمثل أحدهما نظام الإنتاج البائد، بينما تمثل الآخرى النظام الآخذ في التكوين، والصراع الطبقي هو الوسيلة التي تنقل المجتمع من مرحلة إلي أخري وتنتصر في النهاية الطبقة الصاعدة أو المنبثقة في هذا الصراع وتشيد نظاما جديدا للإنتاج يحمل في داخله بذور دماره والقضاء عليه لتستمر العملية الديالكتكية من جديد[8]، وعلي هذا النهج يتطور المجتمع حسب تعبير ماركس عبر مراحل مختلفة تبدأ بالرق ثم الإقطاع وتنتهي بالرأسمالية[9].

ولقد أهتم ماركس بشكل خاص بدراسة وتحليل المجتمع الرأسمالي، وفي هذا الشأن نجده" تصدي لكل ما قاله الاقتصاديون والسياسيون والفلاسفة عن المجتمع ليخلص إلي نظرية اجتماعية شاملة عن المجتمع الرأسمالي"[10] ، لذلك تميزت نظرية ماركس بالثراء الذي يعجز أمامه الباحث إن يلم بكافة مشتملاتها، فقد تناول بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كل منطقة من مناطق الفكر في علم الاجتماع؛ فلقد شملت نظريته: الأيديولوجيا والثقافة والقوة[11]، والاغتراب وتكوين الطبقات والوعي والصراع الطبقي والثورة والعمل والعلاقات الإنسانية في المجتمع الصناعي والرأسمالي الغربي، وتميز إطاره

---

[7]نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة ةآخرون، القاهرة، دار المعارف،ط 1، 1970،ص ص 75، 76.

[8]المرجع السابق، ص 76.

[9]علي عبد الرازق جلبي وآخرون، نظرية علم الاجتماع : الرواد، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 274.

([10]) ريتشارد أوزبرن و بورن فان لون، علم الاجتماع، ترجمة حمدي الجابري، القاهرة، المجاس الاعلى للثقافة، 2005، ص 64.

([11])المرجع السابق، ص 64.

النظري بتماسك قضاياه في مختلف ما طرحه من موضوعات فجميعها تعكس المسلمات التي أنطلق منها.

وإذا كانت تلك لمحة مختصرة ومبسطة لفكر ماركس فإنها تكشف بشكل واضح اعتماد فكر ماركس علي التفسير الأحادي الاتجاه أو ما يطلق عليه الحتمية سواء الاقتصادية أو التاريخية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخري فإن أعمال ماركس تكشف عن "رؤية بنائية تاريخية تتسم بالشمولية وتعبر عن أيديولوجيا متميزة لم يحاول إخفاء مضمونها السياسي في كتاباته ومراسلاته العلمية "[12].

بيد أنه لم تكن نظرية ماركس هي النموذج الوحيد للتحليلات الكلية الشمولية التي ميزت التاريخ الحداثي للنظرية السوسيولوجية، بل أن هناك نماذج أخري كثيرة لا يتسع المجال لتفصيلها، ومن أبرز أمثلتها نظرية بارسونز والبنائية الوظيفية والبنيوية والفينومنولوجية.

التجريد والتركيب والتعقيد:

كثيرا ما تتهم النظرية العلمية بشكل عام بالغموض وصعوبة الفهم ، ويمكن رد ذلك إلي ما تتسم به النظريات عموما من طابع تجريدي تسمو به علي المشاهدات الواقعية ، وذلك الطابع التجريدي هو أداة النظرية للوصول للتعميمات التي تعد هدفًا أساسًا لأي نظرية " فكل النظريات تتعامل مع التعميم والتحليل التجريدي"[13]، وإذا ما خصصنا الأمر بعلم الاجتماع نجد "أن النظريات في علم الاجتماع ارتبطت بالتفكير المجرد علي مستوي الاستخدام العادي، وهناك بعض الاستخدامات تحصرها في إطار ما هو نظري أو ما هو قائم علي مجرد التصور، ولاشك أن هذه الخصائص التي التصقت بمفهوم النظرية تنطوي علي قدر من الصحة لأنه جزء من خصائصها ، إلا أنه لا يعطي المعني الكامل للنظرية خاصة وأن التفكير النظري اليوم لا يمكن فصله عن الواقع، وإن

([12])أحمد مجدي حجازي، مرجع سابق، ص125.

([13])آيان كريب، مرجع سابق، ص 53.

كان هذا الانفصال قد وجد في مرحلة من مراحل تطور علم الاجتماع " [14] ، وتلك المرحلة هي المعنية بالتحليل في هذه الجزئية؛ وذلك لتجسيدها لسمات التجريد والتركيب والتعقيد في النظرية السوسيولوجية.

ولقد شهد التاريخ الحداثي للنظرية السوسيولوجية تبلور "اتجاه نظري عرف باسم علم الاجتماع النسقي (النظري) *Systematic Sociology*، فقد مثل هذا الاتجاه النظري الظاهرة الأساسية في مرحلة نمو النظرية الاجتماعية في منتصف القرن العشرين، فلقد سيطر علي ميدان الاجتماع في الولايات المتحدة، كما أقره كثير من دارسي الاجتماع في أوربا واليابان، حيث يهتم جميع الممثلين البارزين للاجتماع النظري المعاصر بتناول كل من البناء الاجتماعي والتغير الاجتماعي وإن اختلفت درجة الاهتمام من عالم لآخر "[15].

ويتميز ذلك الاتجاه النظري باعتبار فكرة النسق هي النقطة المحورية التي تتبلور حولها المعالجات والصياغات النظرية " إذ يفهم علماء الاجتماع النظريون . وكثير غيرهم . المجتمع علي أنه نسق أو بتعبير أدق نسق مكون من أنساق والمكونات الدنيا (النهائية) للأنساق الاجتماعية هم الفاعلون وهم عبارة عن شخصيات بشرية ينطوي سلوكهم الاجتماعي بالضرورة علي الانتخاب والتقدير، وإن كان نمطه يتحدد كذلك في ضوء توقعات الآخرين والقيم الثقافية، علي أن الوحدة الأساسية للتحليل السوسيولوجي ليست هي الفاعل نفسه إنما فعله . كما يقول بارسونز. أو بتعبير أدق: التفاعل " [16].

ولقد مثل هذا الاتجاه عدد من علماء الاجتماع من أبرزهم بيتريم سوركين وتالكوت بارسونز وفلوريان زنانيكي وجورج هومانز وبيتر بلاو وتشارلز لوميز [17]، وإذا كانت فكرة النسق فكرة على مستوي عالي من التجريد مثلت بؤرة الاهتمام لدي هؤلاء العلماء،

([14])السيد علي شتا، نظرية علم الاجتماع، الاسكندرية، مكتبة الاشعاع الفنية، 1997، ص 130.

([15]) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص 383، 384.

([16])المرجع السابق، ص ص 441– 442.

([17])المرجع السابق، ص 442.

فإن ذلك المستوى العالي من التجريد انعكس على مختلف صياغاتهم النظرية؛ مما زاد من صعوبة نظرياتهم وتعقيدها، وشكل ما اسماه ميلز بالنظرية الكبري *Grand Theory* ليشير إلي صورة التنظير التي تتسم بدرجة عالية من التجريد، حيث تحتل عملية تنظيم المفاهيم وترتيبها أولوية علي فهم العالم الاجتماعي[18] ، ومن ثم أصبحت تلك النظريات ذات طابع وصفي تهتم بوضع التصنيفات العامة علي حساب تحديد الآليات السببية[19] ؛ ولعل أبرز وأشهر الأمثلة علي ذلك النوع من النظريات نظرية بارسونز (1902-1979) حول الأنساق التي سنحاول أن نسترشد بها كنموذج فج لسمات التجريد والتركيب والتعقيد التي اتسمت بها النظرية السوسيولوجية خلال تاريخها الحداثي.

فالتجريد لدي بارسونز ينعكس في أعماله من خلال ثلاث محكات: **الأول:** تصوره عن دور النظرية المجردة في ارتقاء العلم ، **والثاني:** المبالغة في استخدام المفاهيم ذات الطابع المجرد ، **والثالث:** الصياغات النظرية التي قدمها.

فيما يخص **المحك الأول** يتبين أن بارسونز وجه كل أعماله تجاه تحقيق هدف واحد هو تطوير إطار نظري تصوري من أجل أن يحتل علم الاجتماع مكانة علمية حقيقة [20]، حيث إنه يعتبر أن وضع نظرية مجردة دليلا أساسيا علي نضوج علم من العلوم ، ذلك أن مثل هذه النظرية تيسر الوصف والتحليل والبحث الأمبريقي ، ويؤكد بارسونز أن هذه الأهداف تتطلب إطارا مرجعيًا عامًا وتستدعي منا فهم بناء النسق النظري في حد ذاته [21].

([18])جوردون مارشال، مرجع سابق، ص 1508.

([19])آيان كريب، مرجع سابق، ص 53.

([20]) چى روشيه، علم الاجتماع الأمريكي: دراسة لأعمال تالكوت بارسونز، ترجمة محمد الجوهري وأحمد زايد، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1981، ص 25.

([21]) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص 399.

أما بشأن **المحك الثاني** نتبين أن المهمة الرئيسية لبارسونز تمثلت في حرصه على أن يطور مجموعة من المفاهيم العامة المجردة التي تصف النسق الاجتماعي [22]، فنقطة البداية لدى بارسونز في وضع النظرية هي صوغ مجموعة من المفاهيم التي تسمح بعزل الظواهر من تجسيداتها الواقعية[23]، فعلى سبيل المثال لا الحصر يقرر بارسونز في مؤلفه " بناء الفعل الاجتماعي "أن الوحدة الأساسية للتحليل في نظرية الفعل هي ما اسماه "وحدة الفعل " حيث يشتمل الفعل منطقياً على أربعة مكونات [1] فهو يتضمن "الفاعل" القائم بالفعل[2]، ولتعريف الفعل وتحديده لابد أن يكون له "هدف أو غاية "[3] كما يجب أن يدخل في "موقف" وبتحليل هذا الموقف نجد أنه يشمل عنصرين " الشروط"و"الوسائل "[4]، أما العنصر الرابع في الفعل فهو "التوجيه المعياري"[24].

وإذا كان ذلك نموذج مصغر على استرسال بارسونز في استخدام المفاهيم المجردة، فنجد أن مؤلفاته زاخرة بمثل هذا النوع من المفاهيم والتي من أمثلتها الإطار المرجعي *Frame of reference* ، والتشكيل النظامي *Institutionalization*، والاستدخال *Motivational orientations* ،متغيرات *النمط Pattern Variables* ،الانقسام الشطري المتتابع *Binary fission*, استعدادات الحاجة-Need *dispositions*، الرشد المعرفي *Cognitive rationality*، البدائل *Alternatives* .

أما بشأن **المحك الثالث** المتمثل في الصياغة النظرية، فنتبين أنه إذا كان هدف بارسونز النظرية المجردة وأدواته في ذلك المفاهيم المجردة فمن الطبيعي أن تأتي صياغاته النظرية ذات طابع مجرد "فنظرية الفعل لديه لا تحوي أي شكل من المعرفة

([22]) جوردون مارشال ، مرجع سابق، ص 261.

([23]) محمد عارف عثمان، تالكوت بارسونز : رائد الوظيفية المعاصرة، مكتبة الانجلو المصرية، 1981،ص 21.

([24])Talcott Parsons, The structure of social action, New York : Free Press, Vol 1, 1968, PP 43-44.

يمكن التحقق منه تجريبياً في ضوء الواقع الاجتماعي، ولا تنطوي على أي من الإطرادات التجريبية التي يمكن أن توجد بين ظواهر المجتمع، فهي ليست نظرية تشير إلى الوجود الاجتماعي بل هي نظرة فكرية تصورية عامة للفعل الاجتماعي"[25], ولقد حدد بارسونز لنفسه خطة عامة في صياغة النظرية تألفت من الخطوات المرحلية التالية [26]:

أ. وضع إطار مرجعي يتألف من مجموعة من المفاهيم العامة التجريدية التي تصور بعض جوانب العالم الخارجي الموضوعي، ومن مجموعة من الآراء المعرفية والمنهجية، ومن أمثلة المفاهيم التي يحويها الإطار المرجعي لنظرية الفعل الاجتماعي: الفاعل والموقف والشروط والمعايير والوسائل والغايات، ومن أمثلة الآراء المعرفية والمنهجية الواقعية والتحليلية فكرة الاختيار الإرادي.

ب. وضع المقولات التي تستند إلى الإطار المرجعي السابق ،ومن أمثلة المقولات في نظرية الفعل الاجتماعي : التوجهات الدافعية وتوجهات القيم وعناصر الموقف وما تتشعب إليه هذه المقولات العامة من فئات متعددة تشير إليها بعض المقولات مثل التوجهات الدافعية المعرفية والتوجهات الدافعية الانفعالية والتوجهات الدافعية التقويمية .....ألخ.

ج. تشكيل ما أسماه بارسونز نسق المقولات الذي يتشكل من خلال التنسيق بين المقولات وربطها ببعضها .

د. والمرحلة الرابعة هي مرحلة وضع النسق النظري الذي يتمثل لدى بارسونز في إرساء القوانيين، ويشير بارسونز في هذا الصدد أن ما تم التوصل إليه في مجال دراسة السلوك الإنساني من نظرية وظيفية بنائية لا

([25]) محمد عارف ، المجتمع بنظرة وظيفية، الكتاب الاول ، مرجع سابق ، ص 199.

([26]) محمد عارف، تالكوت بارسونز :رائد الوظيفية المعاصرة، مرجع سابق ، ص ص 85، 86، 87، 92.

يتجاوز نسق المقولات، وأن الوصول إلى القوانيين لم يتحقق في هذا المجال بقدر يسمح أو يبرر بأن تسمى هذه النظرية نسقاً نظرياً كما يوجد مثل هذا النسق في الميكانيكا مثلا[27] .

أما سمة **التركيب** فظهرت لدى بارسونز بشكلين مختلفين؛ ***الأول*** : تجسد في أعمال بارسونز المبكرة التي حاول فيها التأليف بين تيارات مختلفة في الفكر الاجتماعي للقرن التاسع عشر والقرن العشرين في مركب واحد شامل حيث نجده يخصص الجزء الأكبر من مؤلفه "بناء الفعل الاجتماعي" [28] في استدماج لمقولات وإسهامات عدد كبير من المفكرين في نظريته للفعل الاجتماعي، فنجده يخصص الفصل الثالث من ذلك المؤلف لتناول بعض أشكال التطور التاريخي من الوضعية الفردية في نظرية الفعل لدى العديد من المفكرين أمثال: هوبز ولوك ومالتوس وماركس ودارون، كما يخصص الباب الثاني لتتبع نشوء النظرية الطوعية للفعل في التراث الوضعي، وقدم في هذا الباب تحليل لأعمال كل من الفريد مارشال وفلفريدو باريتو وإميل دوركايم، وأخيراً يخصص الباب الثالث من هذا المؤلف في تناول نشوء النظرية الطوعية للفعل في التراث المثالي والذي حصره في أعمال ماكس فيبر.

تجدر الإشارة هنا إلى أن أهم ناحية من نواحي المركب الذي توصل إليه بارسونز هو جمعه بين النظريات الكلية والفردية المتعلقة بالفعل الاجتماعي التي ارتبطت بكل من دوركايم وفيبر من بيين الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع[29].

أما الشكل ***الثاني*** من التركيب الذي يظهر لدى بارسونز؛ فيتمثل في طريقة صياغة النظرية، فهي كما يقول: جي روشيه Guy Rocher (1974) تشبه الصناديق الصينية، حينما تفتح صندوقاً منها تجد انه يحوي صندوقاً آخر بداخله وهذا الصندوق

([27]) المرجع السابق، ص 90.

([28]) Talacott Parsons,Ibid.

([29])آيان كريب، مرجع سابق، ص 66.

بداخله صندوق أصغر وهكذا[30]، فلقد أغرق بارسونز نظريته بالتصنيفات والاشتقاقاتن حيث أرسى منظومة من الأنساق المركبة ، حيث يبدأ بنسق الفعل الاجتماعي، ويشتق منه أربعة أنساق فرعية (الثقافي ،الاجتماعي . السلوكي . الشخصية) ويحدد لكل نسق مهمة وظيفية يؤديها (المحافظة على النمط أو الكمون . التكامل . التكيف . تحقيق الهدف)، "وكل نسق فرعي يضم بدوره أنساق فرعية أخرى أكثر تخصصاً وتحديدًا "[31]، كما انه يحدد متغيرات النمط في خمس أزواج من البدائل للاختيارات أمام الأفراد "(الوجدانية/الحياد الوجداني، المصلحة الذاتية/المصلحة الجمعية، العمومية/الخصوصية، الأداء/النوعية، التخصص/الانتشار)" [32]، ويتضح من خلال معظم مؤلفات بارسونز في النظرية ما تتميز به نظريته من استفاضة لا نهائية في التصنيفات حتى أن جوردون مارشال وصف عمل بارسونز بالمخطط التصنيفي بالغ الضخامة[33].

أما عن ملامح **التعقيد** لدى بارسونز فنتبين أن " نظريته مشهورة بصعوبتها على الفهم، وذلك بسبب تعقيدها أكثر منه بسبب عمقها "[34]، ويجدر الإشارة هنا أن "ميلز شن هجوماً عنيفًا على بارسونز لدرجة أنه كان يترجم لغة بارسونز إلى الانجليزية سخرية منه على التعقيد النظري واللغوي لما هو سهل وواضح ويذهب ميلز في مؤلفه الخيال السوسيواوجي إلى أن أصحاب النظريات الكبرى وعلى رأسهم بارسونز قد انشغلوا بالمعاني التركيبية ولم يكن خيالهم خصباً فيما يتعلق بالإشارات اللفظية، فقد ارتبطوا بمستويات التجريد العليا إلى درجة الأنماط التي أقاموها . والعمل الذي قاموا به من اجل إقامتها .

([30])المرجع السابق، ص 72.

([31]) جوردون مارشال، مرجع سابق، ص 263.

([32]) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص 407، 408.

([33]) جوردون مارشال، مرجع سابق، ص 263.

([34]) آيان كريب، مرجع سابق، ص 66.

تبدو في الغالب وكأنها مباراة جافة من المفاهيم أكثر من كونها جهد لتحديد المشكلات موضع الدراسة بطريقة منظمة وتوجيه جهودنا لهذه المشكلات "[35].

ويكشف النص السابق مدى التداخل والارتباط بين التجريد والتركيب والتعقيد في أعمال بارسونز بل في أعمال عدد ليس بالقليل من علماء الاجتماع الذين انتهجوا النهج النظري الفج في معالجاتهم النظرية.

الثنائيات الاستقطابية:

تعرضت النظرية السوسيولوجية خلال تاريخها الحداثي لقضايا خلافية أساسية احتلت بؤرة الاهتمام، والجدير بالملاحظة أن الخلاف حول تلك القضايا كان يسفر في معظم الأحوال عن قطبين متعارضين من الرؤى والأفكار يقف كل منهما في مقابل الآخر، وإذا ما حاولنا الإلمام بأهم تلك القضايا سنتبين أنها تضم ثلاث قضايا رئيسية تتمثل في: أولوية الذات والمجتمع وعلاقة كل منهما بالآخر، ومستوى التحليل النظري والتوجه الإيديولوجي للنظرية.

1. *أولوية الذات والمجتمع وعلاقة كل منهما بالآخر.*

فيما يتعلق بهذه القضية نجد أن الخلاف حول طبيعة العلاقة بين الذات والمجتمع أسفرت عن ثنائية الفعل/البناء التي يتم التعبير عنها أحيانا بثنائية الفرد/ المجتمع، وأحيانا بالنظريات الفردية *Individualistic*في مقابل النظريات الكلية *Holistic* باعتبار أن الأولى تبدأ بالأفراد وترى أن المجتمع نتاجاً لأفعالهم، بينما تبدأ الثانية بالمجتمع ككل معتبرة إياه شيء أكبر من مجموع المكونين له، وعلى هذا ترى أفعال الأفراد باعتبارها أفعال يحددها المجتمع الذي يشكلون جزء منه [36].

لقد تطورت هذه الثنائية في الآونة الأخيرة وعرفت بثنائية النظريات البنائية في مقابل النظريات التأويلية، حيث تؤكد النظريات البنائية *Structural Theories* على

([35]) أحمد زايد، مرجع سابق، ص ص 262، 263.

([36])آيان كريب، مرجع سابق، ص 42.

أن الموضوع الحقيقي لعلم الاجتماع هو البناء الاجتماعي بمعنى أنماط العلاقات التي تتسم بوجود مستقل عن الأفراد أو الجماعات التي تشغل أوضاعًا في هذه الأبنية الاجتماعية في أي وقت، وهناك صورتان رئيسيتان لهذا الاتجاه: الماركسية التي تقول: بأبنية أنماط الإنتاج، والنظرية الوظيفية البنائية بصورتها عند بارسونز والتي تقول: بأبنية الدور[37]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تهتم النظريات البنائية بصفة أساسية بكيفية تأثير المجتمع في السلوك الفردي والجماعي بدلاً من كيفية تأسيس المجتمع بواسطة الأفراد والجماعات ومن الملامح المميزة للنظريات البنائية إنها تسعى إلى التفسيرات العلمية أو الوضعية للسلوك الاجتماعي[38]، وتتمثل المنظورات البنائية في الوظيفية والماركسية[39]حيث تجسد الأولى بنائية الإجماع *Consensus Structuralism*، وتجسد الثانية بنائية الصراع [40].

وفي المقابل تأتي النظريات التأويلية *Interpretive Theories* لتنظر إلى الفعل والمعنى بوصفهما موضوعين ذوي أهمية قصوى في علم الاجتماع [41]، ففيما يخص **الفعل** تؤكد تلك النظريات على إن الفعل الاجتماعي الهادف بالمعنى الذي حدده فيبر[42] . أي الموجه تجاه الأشخاص الآخرين الذين يمثلون أهمية للفاعل وهو أيضا الفعل الذي نضفي عليه معنى ذاتياً[43]. هو الموضوع الفعلي للاهتمام في علم الاجتماع والافتراض الضمني أو الظاهري وراء هذا الاتجاه أنه لا يوجد شيء أسمه المجتمع كل ما هناك هم أفراد أو جماعات تدخل في علاقات اجتماعية مع بعضها البعض[44].

([37]) جوردون مارشال، مرجع سابق، ص 963.

([38]) مايك اودنيل، مرجع سابق، ص 50.

([39]) المرجع السابق، ص 136.

([40]) المرجع السابق، ص 50.

([41]) جوردون مارشال، مرجع سابق، ص 424.

([42]) المرجع السابق، ص 963.

([43]) المرجع السابق، ص ص 1099 ، 1100.

([44]) المرجع السابق، ص 963.

وفيما يخص **المعنى**، لا تهتم هذه النظريات بطبيعة الفعل وحسب، بل تهتم أيضا بمعنى وتفسير الفعل، ويعد المعنى الذاتي الذي ينطوي عليه الفعل بالنسبة للفاعل أحد السمات المميزة لذلك، على خلاف السلوك[45]، وتجدر الإشارة هنا إلى إن نظريات الفعل المعاصرة تولي اهتمامًا لثلاثة قضايا مختلفة: **أولى:** هذه القضايا طبيعة الرشد والفعل الرشيد ذاته وتتبع بؤرة الاهتمام هذه من تنميط فيبر للفعل إلى أربعة أنماط: تقليدي (عرفي) وعاطفي (انفعالي) وموجه قيمياً وذرائعي (رشيد يستخدم وسائل محددة لتحقيق غايات معينة).....،أما القضية **الثانية:** القواعد المسلم بها بداهة والمخزون المعرفي الكامن وراء الفعل وهي قضية بالغة الوضوح لدى أصحاب الاتجاهات الاثنوميثودولوجيا والفينومينولوجيا، أما القضية الثالثة: فتركز عليها التفاعلية الرمزية من خلال معالجتها لعمليات التعلم و التفاوض حول معنى الفعل الذي يدور بين الفاعلين[46].

أما فيما يخص العلاقة بين الذات والمجتمع فتولي النظريات التأويلية اهتماماً بالغاً بكيفية قيام الأفراد والجماعات بتأسيس المجتمع وإضفاء معنى عليه ومعايشة الحياة فيه أو بالأحرى تأويل الذات (في علاقتها مع الآخرين) للمجتمع والوصول إلى معنى من وراء ذلك، وعلى العكس من علم الاجتماع البنائي يمثل علم الاجتماع التأويلي . في جانب منه . رد فعل مناوئاً للمنهج العلمي أو الوضعي المرتبط بالمنظورات البنائية[47].

2. مستوى التحليل النظري:

إن الجدل حول مستوى التحليل النظري أفرز ثنائية الماكرو والميكرو، أو ما يمكن تسميته الدراسة السوسيولوجية للوحدات الكبرى والدراسة السوسيولوجية للوحدات الصغرى؛ حيث يدرس الأول الأبنية الأعم والنظم الاجتماعية المتساندة والعمليات الكونية التاريخية في الحياة الاجتماعية، في حين يركز الأخير على الفعل والتفاعل وصياغة

([45]) المرجع السابق، ص 1504.

([46]) المرجع السابق، ص ص 1504 – 1506.

([47]) مايك اودنيل، مرجع سابق، ص ص 50 ، 136.

المعنى، وبصفة عامة، تصنف نظريات مثل التفاعلية الرمزية والتبادل الاجتماعي والاثنوميثودولوجيا على أنها تنتمي إلى الميكروسوسيولوجيا في حين إن الماركسية والوظيفية ونظريات الأنساق تعد نظريات ماكروسوسيولوجيا..... ولقد وصل حد التعارض بين طرفي هذه الثنائية إلي أن يقرر آلان داو Alan Dawe بأن:

> ***" هناك ... علما اجتماع : علم اجتماع الأنساق الاجتماعية ، وعلم اجتماع الفعل الاجتماعي ، ويقف هذان العلمان في تعارض مباشر مع بعضهما فيما يتعلق بقضيتين أساسيتين هما : قضياتا النظام والضبط وهما متصارعان علي كافة المستويات وهما يطرحان وجهات نظر متعارضة حول الطبيعة البشرية والمجتمع والعلاقة بين المجتمع والأخلاق، فأولهما يؤكد علي الضرورة الفائقة لرفاهية كل من الفرد والمجتمع و للضوابط الخارجية ومن ثم تبرز فكرة أسبقه النسق الاجتماعي أنطولوجيا ومنهجيا علي المشاركين فيه إما الفكرة المحورية في العلم الثاني فتتمثل في الاستقلالية النسبية للإنسان القادر علي تحقيق إمكاناته الكامنة بصورة كاملة وعلي خلق نظام إنساني حق حالما يتحرر من القيود الخارجية فقط ، وهكذا فإن المجتمع يخلقه أعضاؤه وهو نتاج لصياغتهم للمعني والأفعال والعلاقات التي يحاولون من خلالها أن يفرضوا هذا المعني علي مواقفهم التاريخية [48]"***

بالنظر إلي هذه الثنائية يتبين إنها لا تعدو أن تكون سوي صورة مكررة من ثنائية الفرد/المجتمع ، الفعل/البناء ، وذلك الترابط هو ما أكده ديريك ليدر *Derek Layder* في مؤلفه فهم النظرية الاجتماعية 1994 *Understanding Social theory* ، حيث أشار إلي أن النظرية الاجتماعية اتجهت إلي الانتظام حول ثلاث ثنائيات رئيسية مترابطة ، ويمكن التفكير في كل عمود من العمودين بالجدول التالي علي أنه عناقيد من المفاهيم المترابطة .

جدول (1) الثنائيات النظرية الرئيسية في علم الاجتماع

وحدات صغري (ميكرو)	وحدات كبري (ماكرو)

([48])جوردون مارشال، مرجع سابق، ص ص 1267 ، 1268.

البناء	الفعل
المجتمع	الفرد

وبالرغم من ذلك الترابط بين تلك الثنائيات فإن أهم ما قدمه ليدر تمييزه بين ثنائية الفعل/البناء والوحدات الصغري/ الكبري بقوله: " إذا كان الفعل/البناء يشير من حيث المبدأ إلي الملامح الصغري/الكبري للحياة الاجتماعية فإن التفرقة بين الوحدات الكبري/الصغري تتعلق أساسًا بالاختلاف في مستوي التحليل ونطاقه...؛ فعلي سبيل المثال تتصل الظواهر الصغري بالجوانب الشخصية والخاصة بالسلوك المباشر (الوجه للوجه) مثل التصنيف الفئوي في قاعة الدراسة، وتتعلق الظواهر الكبري بالظواهر اللاشخصية التي تحدث علي نطاق واسع مثل علاقة النظام التعليمي بالاقتصاد "[49].

3. التوجه الأيديولوجي للنظرية

سبق وأن أشرنا في بداية هذا الفصل إلي الدور البارز الذي لعبته التغيرات البنائية التي أصابت المجتمع الأوربي في مطلع القرن التاسع عشر . بفعل الثورتين الفرنسية والصناعية . في ظهور علم الاجتماع كاستجابة فكرية إزاء تلك التغييرات، فإن هذه التغيرات ذاتها لعبت أيضا دورًا بارزًا في تبلور اتجاهين أيديولوجيين توارثهما علم الاجتماع خلال تاريخه الحداثي، وذلك لأن تلك التغيرات أحدثت جدلاً فكريًا واسعًا بين المفكرين الذين انقسموا في مواقفهم إزائها وإزاء فلسفة التنوير ذات الطابع النقدي إلي فريقين؛ الأول: مثل الفكر التقليدي الإيجابي الذي" اتخذ موقف معارض لفلسفة التنوير وأخذ يناهض الثورة واعتبر نزعة التحدث التي جاءت بها الثورة شر"[50] يهدد استقرار النظم الاجتماعية لذلك وجه هذا الفريق جهده في البحث عن كيفية تخطي أزمة النظام والوصول إلي الاستقرار دون المساس بمصالح الطبقات المسيطرة سواء الإقطاعية أو

([49]) مايك اودنيل، مرجع سابق، ص 170.

([50]) أحمد زايد، مرجع سابق، ص 60.

الرأسمالية، أما الفريق الثاني: فمثل الفكر النقدي السلبي الذي أنطلق من فلسفة التنوير في نقد النظام السالب لحرية الفرد[51].

وبظهور علم الاجتماع ومن خلال تصديه لمشكلات النظام وتشخيصه لطبيعة المشكلات البنيوية والفكرية التي سادت القرن التاسع عشر نجده أستوعب التيارين الأيديولوجيين السابقين، وقدم في ضوئهما نموذجين متعارضين من الفهم والتفسير في النظرية السوسيولوجية، **النموذج الأول:** هو ما سمي بالتفسير أو التوجه المحافظ الذي اتخذ من المحافظة علي النظام الرأسمالي هدفًا أساسيًا بتأكده علي أهمية التكامل وتبرير الأوضاع الراهنة، وبأن المجتمع لديه ميل عام نحو التكيف والاستقرار وإعادة التوازن، **النموذج الثاني:** هو ما سمي بالتفسير أو التوجه الراديكالي النقدي الذي سعي إلي نقد النظام الاجتماعي وإلي إدراك علاقات التناقض الأساسية في المجتمع وكشف العلاقات الحقيقية السببية التي تفسر نشأة الظواهر الاجتماعية وتطورها[52].

جدير بالإشارة إن كلا الاتجاهين يعمل في صالح تحقيق أهداف أيديولوجية معلنة أو مستترة ، وتتمثل أهداف الاتجاه المحافظ في تحقيق استقرار النظام القائم (الرأسمالي) خوفًا من التفكك الأخلاقي الراديكالي ، بل أن البعض من أصحاب هذا الاتجاه يرون أن العودة إلي النظام القديم (الإقطاعي) فيه استقرار أكثر من التحول إلي نظام آخر أو علي أقل تقدير المحافظة علي كيان المجتمع في مرحلته الراهنة ، بينما تتحدد أهداف الاتجاه الراديكالي في التأكيد علي أهمية النظام كخطوة (أو مرحلة انتقالية) في سبيل زيادة حدة التناقض؛ وبالتالي التحول من خلال الصراع الطبقي إلي مجتمع أفضل والتحول نحو نظام اجتماعي جديد [53].

([51]) أحمد مجدي حجازي، مرجع سابق، ص 44.

([52]) زكى عبد المجيد زكى ، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت : دراسة تحليلية لتقدير كفاءة النظرية في فهم واقع العالم الثالث ، رسالة دكتوراه كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، 1995 ، ص 18.

([53]) أحمد مجدي حجازي، مرجع سابق، ص 56.

ومع تطور ونضوج علم الاجتماع أصبح هذان الاتجاهان القطبين الأساسين في علم الاجتماع من حيث " تأثيرهم الواضح والملموس علي مسارات التنظير في علم الاجتماع، وأصبح كل منهما بمثابة إطار يضم في داخله العديد من محأولاًت التنظير التي يوحد بينها نظرتها للمجتمع والإنسان وما يحيط بهما من عوالم، وفي ذلك يؤكد ميلز علي أن المواقف السوسيولوجية الأساسية التي عبرت عنها محأولاًت التنظير إما إنها أخذت موقفا موجبا مؤيدا ومبررا للنظام القائم، وإما إنها أخذت موقفا سالبا نقديا لتجاوز النظام القائم، وخلال هذا التطور لهذين الاتجاهين تعددت مسمياتهما التي منها: الوظيفية والجدل ، التكامل والصراع ، البنائية الوظيفية والبنائية التاريخية ...إلي أخر هذه المسميات التي تتفق جميعها في المضمون"[54].

وفي أحدى مراحل تطور علم الاجتماع تجسد الفكر الأيدلوجي المحافظ ليشكل الاتجاه البنائي الوظيفي بروافده المتعددة معتمدا علي أسس الفكر التقليدي ووقف أمام تيارات راديكالية جديدة ظهرت في صورة أكثر تحررا من الفكر الأيدلوجي النقدي التقليدي[55]، ومن أبرز صورها الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت والفكر النقدي الذي أرسته مدرسة التبعية.

القضايا الأساسية في النظرية السوسيولوجية في مرحلة الحداثة.

إن الوقوف علي الموضوعات والقضايا التي انشغلت بها النظرية السوسيولوجية خلال تاريخها الحداثي يمكن أن يتم بإحدى منهجيتين، **المنهجية الأولي:** تعترف بالعلاقة التفاعلية بين علم الاجتماع والمجتمع التي في ضوئها يمكن رصد أهم المشكلات والقضايا التي طرحها المجتمع الأوربي خلال تلك الفترة الزمنية وفرضت نفسها علي علم الاجتماع فاستجاب لها بالدراسة، أما **المنهجية الثانية:** فتتمثل في رصد أهم الموضوعات التي اهتم بها أكثر السوسيولوجين تأثيرا في تاريخ النظرية السوسيولوجية.

([54]) عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1981، ص ص 62. 64.

([55]) أحمد مجدي حجازي، مرجع سابق، ص 44.

وسنحاول أن نجمع بين المنهجيتين لتحديد قضايا الاهتمام في النظرية السوسيولوجية مع التأكيد علي إننا سنكتفي بتحديد تلك القضايا دون عرض ما طرح حولها من تحليلات حتي لا نخرج عن الهدف الأساسي لعرض هذه الجزئية؛ ألا وهو وضع أساس للمقارنة بين قضايا النظرية السوسيولوجية في مرحلة الحداثة بالقضايا النظرية السوسيولوجية في مرحلة ما بعد الحداثة.

ونعود للمنهجية الأولي لنؤكد علي أن علم الاجتماع بحكم اهتمامه بالمجتمع وأفراده كان ومازال منذ نشأته وحتى الآن مرآة عاكسة لما يمر به المجتمع من تحولات، وما يكابده من أزمات، وما يعتريه من قضايا؛ لذا نجده " تأسس في العصور الحديثة وهو يعكس اهتمامات وقضايا القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين"[56] ؛ فإذا كانت الحداثة بمختلف ظروفها ومتغيراتها وما طرحته من مشكلات . سبق إيضاحها في بداية هذا الفصل . قد خلقت حاجة ملحة لظهور علم للمجتمع يناقش ويدرس تلك الظروف والمتغيرات والمشكلات, فإنها بذلك رسمت المعالم الأساسية لقضايا اهتمام هذا العلم التي تم في ضوئها صياغة أهم مقولاته النظرية التي ظلت متداولة حتى وقت قريب.

ولعل أهم الظروف التي تعرض لها علم الاجتماع بالاهتمام والدراسة تحول المجتمع الصناعي من النظم القديمة إلي النظم الحديثة، فاهتم بتفسير هذا التحول وتوضيح أسبابه ومصاحباته، مما انعكس في أعمال كبار مؤسسي ذلك العلم؛ فنجد دور كايم يولي اهتمامًا كبيرًا بتحول نظم تقسيم العمل وطرحه لمقولات التضامن الآلي والتضامن العضوي، بينما أهتم ماكس فيبر بقضية النمو البيروقراطي والتنظيمي وبعمليات الترشيد العقلي والسلوكي وجميعها مظاهر مصاحبة للتحول الرأسمالي، فضلا عن اهتمامه بالعلاقة بين النزعة العقلية للديانة البروتستنتية وبين نمو الرأسمالية، بينما

(56) مايك اودنيل، مرجع سابق، ص 132.

وجه ماركس كل اهتمامه للأسس المادية في تشكيل الأبنية الفوقية كالثقافة ونظم الدولة والأسرة والدين[57].

وتؤكد هذه العينة من الموضوعات إلى أي مدي وجه علم الاجتماع في بداية تاريخه الحداثي اهتمامه لدراسة وتحليل " الأبنية الكبرى أو بالأحرى الوحدات الكلية للمجتمع الصناعي، ولذلك جاءت تحليلاته كلية تركز علي التحليل الكلي الواسع النطاق حتى وأن بدأت من أصغر وحدات المجتمع كما فعل ماكس فيبر"[58] ومن بعده بارسونز.

ومن ثم ظهر علم الاجتماع بوجه مؤسسي سافر يوجه كل اهتمامه لدراسة النظم والثقافة والأنماط الضابطة ، ولقد تدعم طابعه المؤسسي في تطوراته اللاحقة، حيث لم تستطع هذه التطورات أن تتجنب الصياغات الشكلية والصورية التي تهتم بالعلاقات المؤسسية ، وذلك ما تؤكده تحليلات بارسونز النظرية التي وإن كانت انطلقت من مقولة الفعل الاجتماعي إلا أنها انتهت بالصياغات الصورية حول العلاقات بين الأنساق ومكوناتها [59]، وذلك يؤكد علي حقيقة أساسية مفادها أن علم الاجتماع وجه كل اهتمامه إلي دراسة المشكلات الكبرى التي يواجهها المجتمع كما أنه استجاب لتلك المشكلات بصياغات نظامية ترتفع فوقها وتبحث في عملية التشكيل النظامي (المؤسسي) التي تحتويها، ولا شك أن علم الاجتماع كان يستجيب بتفسيراته هذه لعملية التحول النظامي في المجتمع التي تعقدت جوانبها وتكاثفت أبعادها [60].

ولقد كان لذلك الأسلوب الذي سلكه علم الاجتماع في الاستجابة لظروف المجتمع أثره الواسع في صياغة المقولات النظرية الأساسية للنظرية السوسيولوجية التي استمرت خلال التاريخ الحداثي لعلم الاجتماع، فقد كانت التحولات الاجتماعية والسياسية

([57]) أحمد زايد، خطاب الحياة اليومية في المجتمع المصري، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003، ص 39.

([58]) المرجع السابق، ص 39.

([59]) المرجع السابق، ص ص 14 – 15.

([60]) المرجع السابق، ص 37.

والاقتصادية التي شهدها المجتمع الأوربي أبان الثورتين الفرنسية والصناعية ظرفًا بنائيًا استجابت له النظرية السوسيولوجية بمختلف أيديولوجياتها، فقد كانت تلك التحولات المجتمعية مدعاة لأن يؤكد الاتجاه المحافظ على مقولة النظام وما ترتب عليها من مقولات عدة كالاستقرار والتوازن وفيما بعد الوظيفة ، كما تجسد ذلك في أعمال كونت ودوركايم ومن بعدهما بارسونز وميرتون وجيل كبير من الوظيفيين.

أما الاتجاه الراديكالي النقدي فقد استجاب لتلك التغيرات علي نحو مختلف، فقد اهتم أكثر بإبراز مقولة التغير الاجتماعي وما ترتب عليها من مقولات الصراع والطبقة، كما تجسد ذلك في أعمال ماركس وجرامشي ولوكاش ومن بعدهم لويز كوزر وغيرهم من جيل كبير من الماركسيين، وإذا كانت تلك هي القضايا النظرية التي شكلت محور اهتمام النظرية السوسيولوجية وفقا للمنهجية الأولي ، فهل تختلف إذا ما استعنا بالمنهجية الثانية؟ يمكن أن نتبين ذلك في السطور التالية.

وفقا للمنهجية الثانية نتبين أنه بذلت محأولاًت عديدة لتحديد الخطوط العريضة للنظرية السوسيولوجية أو بالأحرى قضايا الاهتمام الرئيسية ، وحسبنا هنا أن نشير إلي ثلاث من تلك المحأولاًت، فهناك محاولة تشارلز رايت ميلز والذي وضع نصب عينيه أعمال ماركس ودوركايم وفيبر وغيرهم من علماء الاجتماع الكلاسكيين عندما حدد أن هؤلاء المفكرين انشغلوا بثلاث مسائل أساسية هي [61]:

1. ما بناء مجتمع بعينه ككل ؟ (مما يتكون هذا المجتمع؟).
2. ما العلاقة بين الفرد أو الذات . بما فيها أنماط معينة من الأفراد . وهذا المجتمع؟
3. أين يقف هذا المجتمع من تاريخ البشرية؟

كما قرر تيماشيف من خلال دراسة مطولة عن النظريات السوسيولوجية من بدايات القرن التاسع عشر وحتي منتصف القرن العشرين " إن فحص النظريات

([61]) مايك اودنيل، مرجع سابق، ص 133.

السوسيولوجية في الماضي والحاضر يوضح أنها تدور حول مشكلات قليلة ومحدودة، أكثره أهمية ما يدور حول التساؤلات التالية [62]:

- ما المجتمع ؟ ما الثقافة ؟
- ما الوحدات الأساسية التي ينبغي أن نحلل المجتمع والثقافة إليها ؟
- ما طبيعة العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية؟
- ما العوامل التي تحدد حالة المجتمع والثقافة وتغيرهما؟
- ما علم الاجتماع؟ وما مناهجه الملائمة؟

أما مايك أودنل فيعتمد علي أفكار دوركايم وماركس وفيبر ليحدد في ضوئهما المسائل الأساسية لنظرية علم الاجتماع حيث يقرر إنه ليس بالإمكان تأسيس منظور (نظري) دون التعرض للإجابة عن المسائل السبعة التالية، التي لديه وإن كانت الأهم فهي ليست الوحيدة؛ حيث يقرر أن تلك المسائل السبعة لا تلغي وجود مسائل أخري مهمة أيضا في النظرية السوسيولوجية وتتمثل تلك المسائل السبعة في[63] :

1. مما يتكون المجتمع؟
2. كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟
3. لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة ؟
4. ما الذي يسبب التغير الاجتماعي ؟
5. هل المجتمع بطبيعته في حالة توازن أم صراع؟
6. ما علاقة الفرد بالمجتمع؟

([62])نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص 16، 17.

([63]) مايك اودنيل، مرجع سابق، ص ص 49، 50.

7. ما الهدف الأساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟

ويقرر اودنيل أن الإجابة على تلك المسائل من جانب دوركايم وماركس وفيبر أسهمت في إنتاج ثلاثة اتجاهات متميزة للفكر السوسيولوجي: الوظيفية التي تدين بالفضل الكبير لدوركايم، والماركسية (ماركس) ، ونظرية الفعل الاجتماعي(فيبر).

بنظرة تأملية لتلك المحأولاًت الثلاث لتحديد الموضوعات الأساسية التي تدور حولها النظرية السوسيولوجية نتبين إنها تدور تقريبا في حلقة واحدة من الموضوعات تضم ثلاث قضايا رئيسية:

- المجتمع من حيث بناءه ووظائفه والثقافة كأحد مكوناته.
- علاقة الفرد بالمجتمع.
- التغير الاجتماعي من حيث عوامله وطبيعته.

بمراجعة العديد من النظريات السوسيولوجية في تاريخ علم الاجتماع الحداثي يتبين أن المنظورات السوسيولوجية تفاوتت فيما بينها في الاهتمام بكل قضية من تلك القضايا.

فقد أولت **النظريات الوظيفية** اهتماماً كبيراً بالقضية الأولى بناء المجتمع وأدائه لوظائفه وطبيعته، وفي هذا الصدد قدمت مقولات البناء الاجتماعي والنظام الاجتماعي والنسق الاجتماعي وأكدت على دور التكامل والتساند بين مكوناته سواء كانت نظم أو أنساق في تحقيق وظائف الاستقرار والتوازن.

بينما انشغلت **النظريات الماركسية** بالقضية الثانية التغير الاجتماعي والكيفية التي ينتقل بها المجتمع من مرحلة إلى أخرى، وأسست أفكارها عن التغير على الأسس المادية أو بمعنى آخر النظم الاقتصادية، وهي بذلك طرحت مقولات الصراع الطبقي ودوره في تحقيق التغير الاجتماعي للمجتمعات.

أما القضية الثالثة من قضايا اهتمام النظرية السوسيولوجية فهي العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وبمعني أدق أيهما يملك القوة والقدرة علي توجيه الآخر وتشكيله؟ ونجد أن الإجابة علي هذا السؤال شهدت مرحلتين في تاريخ النظرية السوسيولوجية، المرحلة **الأولي:** تلك التي بدأت مع ظهور علم الاجتماع في أوائل القرن التاسع عشر حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ حيث كانت تتخذ معظم النظريات السوسيولوجية . إن لم يكن جميعها . اتجاه يؤكد علي دور المجتمع في توجيه أفراده وتشكيلهم، وينطبق ذلك علي مختلف النظريات السوسيولوجية بمختلف أيديولوجياتها المحافظة والراديكالية، وإن كان هناك اختلاف بينها فهو في درجة سطوة وقوة المجتمع علي الأفراد، ويبقي اتفاقها علي المبدأ العام الذي أسهم في تصنيف هذه النظريات تحت مسمي النظريات البنائية من منطلق إيمانها بأسبقية البناء علي الفعل أو المجتمع علي الفرد، أما المرحلة **الثانية:** من تاريخ النظرية السوسيولوجية فهي المرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية وربما لم تنته حتى الآن، وتميزت هذه المرحلة عن الأولي بطرحها تصورًا مختلفًا لعلاقة الفرد بالمجتمع معتمدا علي الإيمان بدور وقدرة الأفراد في تأسيس المجتمع وإضفاء معني عليه بل وتشكيله، وجاء هذا الطرح من مجموعة من النظريات التي جعلت من المعني والقصد الفرديين جزء لا يتجزأ من نظرية علم الاجتماع، وكان من أبرز تلك النظريات التي تبنت هذا الاتجاه التفاعلية الرمزية والإثنوميثودلوجيا والظاهراتية، وعرفت هذه المجموعة من النظريات في الآونة الأخيرة بالمنظورات التأويلية من منطلق اهتمامها بتأويل المعاني التي يتضمنها أفعال الأفراد.

ملخص الفصل

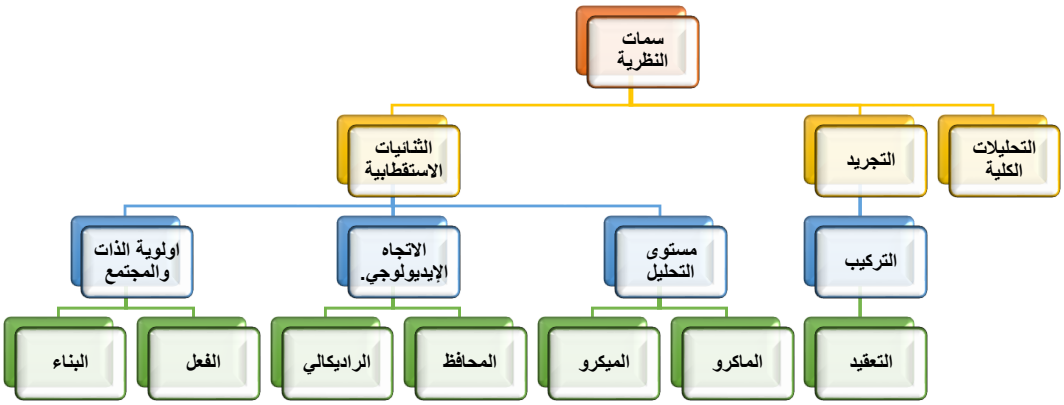
سمات النظرية
الثنائيات الاستقطابية
التجريد
التحليلات الكلية
اولوية الذات والمجتمع
الاتجاه الإيديولوجي.
مستوى التحليل
التركيب
البناء
الفعل
الراديكالي
المحافظ
الميكرو
الماكرو
التعقيد

مراجع الفصل

_ مروة صلاح الدين عبد الله, النظرية والمنهج في سوسيولوجيا ما بعد الحداثة دراسة تحليلية, رسالة دكتوراة, كلية الآداب, جامعة القاهرة, 2010.

الفصل الخامس :
النظريات البنائية (منظور الإجماع عند أوجست كونت وإميل دوركايم)

- **المفاهيم الأساسية**[1]

♦ **الإجماع: Consensus**

الاتفاق حول القيم الاجتماعية الأساسية بين أعضاء الجماعة أو المجتمع المحلى أو المجتمع. ويؤكد بعض المفكرين الاجتماعيين بشدة على أهمية الإجماع كأساس للاستقرار الاجتماعى. ويعتقد هؤلاء الكتاب أن كافة المجتمعات التى يكتب لها البقاء على امتداد فترة طويلة من الزمن تنطوى على "نسق قيمى مشترك" من المعتقدات التى تتفق عليها أغلبية السكان.

♦ **الصراع: Conflict**

علاقة عدائية بين أفراد أو جماعات فى المجتمع. وقد يتخذ الصراع أحد شكلين. يحدث الأول حيث يكون هناك صدام أو تعارض فى المصالح بين شخصين أو جماعتين أو أكثر، أما الآخر فيحدث عندما ينخرط الناس أو الجماعات فى التقاتل فعلياً مع بعضهم البعض. ولا يؤدى صراع المصالح دائماً إلى الصراع الصريح، فى حين أن الصراع الفعلى قد يحدث أحياناً بين الجماعات التى قد تعتقد خطأ أن لها مصالح متعارضة.

♦ **البناء الاجتماعى: Social Structure**

أنماط التفاعل بين الأفراد أو الجماعات. فالحياة الاجتماعية لا تمضى بطريقة عشوائية بل الواقع أن معظم أنشطتنا محددة بنائياً، فهى منظمة بطريقة مضبوطة ومتكررة. وعلى الرغم من أن المقارنة قد تكون مضللة، فمن الأيسر أن نفكر فى البناء الاجتماعى للمجتمع كما لو أنه بمثابة العوارض الصلبة التى ينهض عليها البناء وتربط أجزاءه ببعضها البعض.

♦ **الاتجاه النظرى: Theoretical Approach**

منظور حول الحياة الاجتماعية مشتق من تراث نظرى محدد. ويشتمل التراث النظرى الرئيسى للنظرية فى علم الاجتماع على: الوظيفية، والبنيوية، والتفاعلية الرمزية، والماركسية. وتقدم الاتجاهات النظرية المنظورات العامة التى يعمل من خلالها علماء الاجتماع، ومن ثم يؤثرون فى مجالات بحوثهم، فضلاً عن الأساليب التى يتم بها تحديد المشكلات ومعالجتها.

♦ **النظرية: Theory**

محاولة تحديد الخصائص العامة التى تفسر الانتظام فى الوقائع الملاحظة. ويشكل بناء النظرية مكوناً جوهرياً من مكونات كافة الأعمال السوسيولوجية. وبينما تميل النظريات إلى الارتباط بتوجهات نظرية أرحب، فإنها تتأثر كذلك – بشدة – بنتائج البحوث التى تعمل على توليدها.

ما نقصده بنظرية علم الاجتماع – فى هذه المرحلة – مجموعة من الأفكار التى تشكل الفكر السوسيولوجى، وهى أفكار إما تم اختبارها، أو لم يتم اختبارها. وأفضل طريقة لفهم جوانب الاختلاف بين علماء الاجتماع المعاصرين – وكثير من هذه الجوانب يعود بجذوره إلى أفكار دوركايم وماركس وفيبر – هى أن ندرس بعض المسائل الأساسية لنظرية علم الاجتماع التى حاول هؤلاء الثلاثة أن يجيبوا عنها بطريقة أو بأخرى. وليس بالإمكان تأسيس منظور ملائم فى علم الاجتماع دون الإجابة عن المسائل السبعة التالية، مع أنه يمكن إثارة مسائل أخرى مهمة:

١- مم يتكون المجتمع؟

٢- كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟

٣- لماذا تكون بعض الجماعات فى المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟

٤- ما الذى يُسبب التغير الاجتماعى؟

٥- هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟

٦- ما علاقة الفرد بالمجتمع؟

٧- ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟

وقد ساعدت الإجابة عن تلك المسائل بواسطة دوركايم وماركس وفيبر فى إنتاج ثلاثة اتجاهات متميزة للفكر السوسيولوجى، أو ثلاثة منظورات سوسيولوجية هى:

الوظيفية (التى تدين بالفضل الكبير لأميل دوركايم)، **والماركسية** (ماركس)، **ونظرية الفعل الاجتماعى** (فيبر). وسوف ندرس على نحو منفصل هذه الاتجاهات الثلاثة والإجابات التى قدمتها عن المسائل النظرية السابقة. وجميع هذه المنظورات السوسيولوجية الثلاثة بنائية بطبيعتها. ويختص علم الاجتماع البنائى Structural Sociology بصفة أساسية بكيفية تأثير المجتمع فى السلوك الفردى والجماعى بدلاً من كيفية تأسيس المجتمع بواسطة الأفراد والجماعات. فعالم الاجتماع البنائى يهتم – على سبيل المثال – بكيفية تأثير طبقة الفرد وعائلته (أى الوضع الاجتماعى – البنائى للفرد) على احتمالات نجاحه فى المدرسة أو حصوله على وظيفة جيدة. وينطبق على الوظيفية صفة "بنائية الإجماع" Consensus Structuralism؛ لأنها تؤكد على الدور المحورى الذى يلعبه الاتفاق (الإجماع) بين الناس على القيم الأخلاقية فى المحافظة على النظام الاجتماعى. هذا من جانب، ومن جانب آخر تؤكد الماركسية ونظرية الفعل الاجتماع على الصراع – بدلاً من الإجماع – فى المجتمع. ومن الملامح المميزة للنظريات البنائية أنها تسعى إلى التفسيرات العلمية أو الوضعية للسلوك الاجتماعى.

المنظورات البنائية

الوظيفية (بنائية الإجماع): دوركايم

(١) مم يتكون المجتمع؟ يتكون المجتمع أو النسق الاجتماعى من نظم متعددة أهمها الأسرة. والنظام الاجتماعى جماعة من الناس تنتظم حول هدف (أو أهداف) محدد (أو محددة). فالأسرة النووية – على سبيل المثال – تنتظم حول إنجاب الأطفال وتربيتهم. ومع تقدم المجتمعات تزداد النظم الاجتماعية عدداً وتعقيداً. ويطلق على هذه العملية "التفاضل البنائى" Structural Differentiation. ومن الأمثلة على النظم المعقدة المعاصرة: الخدمة المدنية (التى تطورت انبثاقاً من وظيفة مستشار الملك) والمنشآت الصناعية (التى تطورت عن الصناعات اليدوية الصغيرة).

ويمكن تقسيم النظم إلى أربعة أنساق فرعية:

- اقتصادية (المصانع، الوحدات الإدارية).
- سياسية (الأحزاب السياسية).
- قرابية (الأسر).
- ثقافية واجتماعية (المدارس، ودور العبادة).

(٢) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ يرى الوظيفيون أن المجتمع يعمل بطريقة مماثلة لقيام الكائن الحى بوظائفه. ويشار إلى هذه المقارنة بـ"المماثلة العضوية". ومن ثم فإن النظم الاجتماعية تقوم بأداء وظائفها معاً من أجل مصلحة المجتمع ككل، مثلما تقوم مختلف أجزاء الجسم البشرى بوظائفها معاً من أجل مصلحة الجسم. فعلى سبيل المثال تقوم المدارس بأداء وظيفتها فى علاقتها بالعمل لأنها تُعد الناس له. ولذلك فإن المجتمع – شأنه فى ذلك شأن الجسم البشرى – أكبر من مجموع أجزائه التى يتكون منها. ومع أنه يمكن فصل بناء المجتمع عن وظائفه لأغراض البحث النظرى، فإن البناء والوظيفة لا ينفصلان فى الواقع. ومن الواضح أن المجتمع أو التنظيم لابد أن يكون موجوداً (له بناء) قبل أن يتمكن من القيام بأداء وظائفه (الوظيفة).

(٣) لماذا تكون بعض الجماعات فى المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ يمثل عدم التكافؤ فى امتلاك القوة فى المجتمع مثار اهتمام الماركسيين ومنظرى الفعل الاجتماعى بدرجة أكبر من الوظيفيين. ويفترض الوظيفيون أنه من الضرورى – من الناحية العملية – أن يكون بعض الأفراد والجماعات أكثر قوة من غيرهم؛ لأن هناك عدداً محدوداً منهم هو الذى يمكنه أن يتخذ القرارات المهمة. ومن ثم فلابد أن يكون هناك قادة فى التنظيمات وفى المجتمع، وإلا عم الاضطراب والفوضى.

(٤) ما الذى يسبب التغير الاجتماعى؟ يحدث التغير الاجتماعى– فى رأى الوظيفيين – عندما يتبين أنه ضرورى من الناحية الوظيفية. فعلى سبيل المثال توسعت المجتمعات المعاصرة فى الأنظمة التعليمية؛ لأن تلك المجتمعات بحاجة إلى مزيد من المتعلمين

بدرجة أكبر من المجتمعات الأقل تقدماً. ويمكن أن يحدث التغير من خلال التكيف أو التكامل. ويحدث التكيف عندما تقوم مؤسسة قائمة بإعادة التكيف لمقابلة الاحتياجات الجديدة على نحو ما أوضحناه آنفاً. ويحدث التكامل عندما يتبنى المجتمع عنصراً جديداً ويجعله جزءاً منه. فالمجتمع قد ينجح أو يفشل فى إدماج مجموعة من المهاجرين فيه. ويميل الوظيفيون إلى التفكير فى التغير بطريقة تطورية (تدريجية) لاثورية.

(٥) هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟ يرى الوظيفيون أن النظام والتوازن طبيعيان فى المجتمع، ومن ثم فإن حالة عدم التوازن (الحرب المدنية على سبيل المثال) هى حالة اجتماعية غير طبيعية. ويشبه الوظيفيون عدم التوازن فى المجتمع بالمرض فى الكائنات الحية. وأساس التوازن الاجتماعى وجود إجماع أخلاقى، بمعنى أن جميع الأفراد فى المجتمع يشتركون فى نفس القيم. وإذا كان ارتفاع مستوى استهلاك السلع يمثل قيمة فى المجتمع الأمريكى، فإن الأمر ليس كذلك فى المجتمعات البدائية اقتصادياً وتكنولوجياً. وسوف نرى فيما بعد أن الوظيفيين يؤكدون على أهمية تعليم القيم الاجتماعية فى المحافظة على النظام والامتثال. وهنا يبرز التأكيد على دور الوالدين والمعلمين فى نقل القيم إلى الأجيال الأصغر سناً.

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ يرى الوظيفيون أن المجتمع يشكل الفرد من خلال تأثير مؤسساته مثل الأسرة والمدرسة ومكان العمل. ولم يترك أنصار الوظيفية إلا مجالاً محدوداً لوجهة النظر القائلة بأن الفرد يمكن أن يتحكم فى حياته بدرجة كبيرة، إذا ما نحينا جانباً قدرته عل تغيير المجتمع. وفى رأى دوركايم أن الفرد هو محطة الوصول وليس محطة المغادرة. وبلغة أخرى فإن علم الاجتماع – فى رأيه – ليس موضوعه الفرد. وسوف نرى فيما بعد أنه ليس كل الوظيفيين يتفقون مع دوركايم فى هذا الرأى.

(٧) ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يتمثل الغرض الأساسى من علم الاجتماع فى تحليل وتفسير قيام المجتمع بأداء وظائفه بشكل طبيعى أو غير طبيعى. وهذا يتطلب دراسة علاقة مختلف أجزاء المجتمع بعضها ببعض، وعلاقة الأجزاء بالكل. إذ يمكن دراسة العلاقة بين التعليم والعمل، وكذا الإسهام (الضرورى) لكل منهما فى قيام النسق الاجتماعى ككل بأداء وظائفه. وقد أصر دوركايم على أن علم الاجتماع عليه أن يكتشف ويفسر العلاقة بين الوقائع الاجتماعية، على غرار اهتمام علماء الطبيعة بالوقائع الفيزيقية.

أوجست كونت : البدايات الأولى لإرساء نظرية بنائية:

فيلسوف فرنسي ولد في فرنسا عام 1798م وعاش حتى 1857م من عائلة كاثوليكية .

تزعم حركة عصيان قام بها الطلاب فصل بعدها من المدرسة وقد واصل دراسته ثم عمل سكرتيرا للكاتب الاشتراكي سان سيمون والذي تركت أفكاره فيما يخص المنهج الوضعي وتطبيقه على دراسة الإنسان وقانون المراحل الثلاث واكتشاف القوانين الطبيعية للتقدم أثرا في فلسفة كونت لكن بسبب أفكار سيمون الاشتراكية المثالية وتأكيده على أهمية الطبقة الصناعية لم تكن مقبولة لدى كونت مما أدى إلى انتهاء العلاقة بينهما_

أهمية أسهامات أوجست كونت للنظرية الاجتماعية:

يعد كونت أول من استخدم مصطلح "علم الاجتماع" و يمكن النظر إلى أعمال كونت على أنها رد فعل ضد الثورة الفرنسية و حركة التنوير.

-طور كونت – وجهة نظره العلمية – المعروفة باسم الوضعية أو الفلسفة الوضعية.

-سعى كونت إلى نمذجة علم الاجتماع على غرار العلوم الطبيعية.

-درس كونت الاستاتيكا الاجتماعية (الأبنية الاجتماعية القائمة) و الديناميكا الاجتماعية (التغير).

-لم يطالب كونت بالتغير الثوري لأنه شعر أن التطور الطبيعي للمجتمع يجعل الأمور تسير إلى الأحسن.

- وضع كونت نظرية في التطور أو ما اسماه قانون المراحل الثلاثة و هي المرحلة اللاهوتية و الميتافيزيقية و الوضعية.

ما ضرورة علم الاجتماع عند كونت ؟

السبب الذي جعل من قيام علم الاجتماع ضرورة هي رغبة أوجست كونت في إصلاح المجتمع وإنقاذه من مظاهر الفوضى المنتشرة في مختلف نواحي المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت.

2- تتلخص هذه الفوضى في: وجود أسلوبين متناقضين للتفكير وفهم الظواهر.

الأولى: الأسلوب العلمي الوضعي الذي يتجه إلى الناس في عصره إذ يفكرون في الظواهر الكونية والطبيعية والبيلوجية.

الثانية: التفكير الديني الميتافيزيقي الذي يتجهون إليه عند التفكير في الظواهر التي تتعلق بالإنسان والمجتمع.

حاول أوجست كونت مؤسس الوضعية أن يسعى بنظريته إلى تحقيق حالة من الاتساق العام في المجتمع . فالاتساق العام هو الحقيقة الأساسية في النظام الاجتماعي

يسعى كونت إلى إنشاء علم عام للمجتمع ولقد اعتبر دراسته المطولة عن السياسة الوضعية دراسة في علم الاجتماع واعتبر أن مذهبه الوضعي ديانة جديدة للإنسانية . وعلماء الاجتماع – في نظره- هم كهنة هذا الدين الجديد (العلم الجديد)

طبيعة الظاهرة الاجتماعية عند كونت:

- قسم كونت دراسة المجتمع إلى قسمين
- الاستاتيكا الاجتماعية :يقصد كونت بالستاتيكا الاجتماعية دراسة المجتمعات الانسانية في حالة استقرارها وباعتبارها ثابتة ويدرس كذلك هذه المجتمعات في تفاصيلها وجزئياتها من حيث العناصر والنظم الاجتماعية .ويهدف من وراء هذه الدراسة الوقوف على القوانين التي تحكم تماسكها وتعمل على تضامنها.
- ويقصد بموضوع الديناميكا الاجتماعية: دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقديم الذي تخطوه الإنسانية في تطورها وتدور بحوثه

إميل دوركايم مؤسس النظرية البنائية الوظيفية:

قدم إميل دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧) إسهامات عديدة إلى علم الاجتماع، بما فيها دراسته النظرية المهمة عن الانتحار. وقد تلقى دوركايم – وهو ابن حاخام يهودى – تعليمه فى كل من فرنسا وألمانيا، وحقق لنفسه سمعة أكاديمية مرموقة، وتم تعيينه كواحد من أوائل أساتذة علم الاجتماع فى فرنسا. وفوق كل هذا وذاك سوف نتذكر دوركايم بإصراره على أن السلوك يتعين فهمه فى السياق الاجتماعى الأكبر، وليس فى السياق الفردى فحسب.

وقد طور دوركايم (١٩٤٧، النسخة الأصلية صدرت عام ١٩١٢) نظرية رئيسية – نقدمها هنا كمثال على هذا الإصرار – لتساعد فى فهم كافة أشكال المجتمع من خلال دراسة مكثفة على قبيلة الـ"أرونتا" الأسترالية. وركز دوركايم على الوظائف التى يؤديها الدين فى هذه القبيلة، كما أكد على الدور الذى تلعبه الحياة الجمعية فى تحديد ما هو "دينى". وخلص دوركايم من دراسته إلى أن الدين – شأنه شأن الأشكال الأخرى للسلوك الجمعى – يعزز تضامن الجماعة.

وكانت تداعيات العمل فى المجتمعات الحديثة من الاهتمامات الأخرى الرئيسية لإميل دوركايم. وفى رأيه أن تزايد تقسيم العمل الموجود فى المجتمعات الصناعية – عندما يصبح العمال أكثر تخصصاً فى أعمالهم – يؤدى إلى ما أسماه "اللامعيارية" Anomie التى تعنى فقدان التوجيه الذى يشعر به المجتمع عندما يصبح الضبط الاجتماعى للسلوك الفردى عقيماً. وتحدث حالة اللامعيارية عندما يفقد الناس إحساسهم بالهدف أو التوجيه خاصة خلال فترات التغير الاجتماعى العميق. ويكون الناس – عندما يعيشون فترة من اللامعيارية – مشوشين وعاجزين عن التعايش مع البيئة الاجتماعية

الجديدة لدرجة قد تدفع بعضهم إلى الانتحار.

وكان دوركايم مشغولاً بالأخطار التي يفرضها الاغتراب والوحدة والعزلة على المجتمعات الصناعية الحديثة. وقد شارك كونت إيمانه بأن علم الاجتماع ينبغي أن يوجه التغير الاجتماعي، وبالتالي دافع عن وجود جماعات اجتماعية جديدة – بين أسرة الفرد والدولة – توفر الإحساس بالانتماء بين أعضاء المجتمعات الكبيرة.

ولم تكن اهتمامات دوركايم – مثل غيره من كثير من علماء الاجتماع – مقصورة على جانب واحد فقط من جوانب السلوك الاجتماعي. فقد اهتم بالجريمة والعقاب، والدين، ومكان العمل. وهناك نفر قليل من علماء الاجتماع ممن لهم هذا التأثير الطاغي على مجالات عديدة متنوعة داخل علم الاجتماع.

النظرية البنائية الوظيفية

تعد النظرية البنائية الوظيفية أكثر الاتجاهات النظرية رواجًا في علم الاجتماع وتعتبر من المعالم الرئيسية لعلم الاجتماع الأكاديمي المعاصر.

يرجع تسمية هذه النظرية بالبنائية الوظيفية إلى اعتمادها على مفهومين أساسيين في تحليل المجتمع وتفسيره، وهما "البناء Structure "و"الوظيفة " Function ويمثل هذان المفهومان العمود الفقري لهذه النظرية.

لبناء الاجتماعي هو مجموعة العلاقات الاجتماعية الثابتة والدائمة التي تربط بين أعضاء المجتمع الذين يلعبون أدوارًا معينة S. Roles ويشغلون مكانات اجتماعية محددة، ويّكونون بالتالي جماعات اجتماعية متعددة داخل المجتمع.(كريب،1999م)

مفاهيم النظرية:

البناء الاجتماعي Social structure: يستخدم مفهوم البناء لدى الوظيفين ليشير إلى نظم المجتمع، خاصة الأنساق المؤسسية الرئيسية كالنظام الاقتصادي، والسياسي، والأسرة، وهذه المؤسسات لها جانب مادي، وجانب معياري سلوكي، حيث تتشكل من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية الثابتة والدائمة بين أفراد يشغلون مكانات

اجتماعية محددة، مما يؤدي إلى وجود مجموعة من النظم الاجتماعية المتساندة، يؤدي كل نظام وظيفة محددة لهم في بقاء البناء الاجتماعي ككل.

والافتراض الأساسي هنا هو بقاء هذا البناء يتوقف على العلاقات بين النظم المختلفة وأدائها لوظائفها.

أما **مفهوم الوظيفة Function** فيشير إلى المهمة أو الدور المنوط به كل نظام من نظم المجتمع، يعتبر الوظيفيون أن الاجماع القيمي (الاتفاق حول المعايير) شرط لقيام المجتمع بأداء وظائفه بشكل فعال.

الوظائف الظاهرة/ والوظائف الكامنة: أستخدم الوظيفيون هذين المفهومين وخاصة روبرت ميرتون 1968 فالوظائف الظاهرة هي الوظائف الصريحة والمعلنة والمقصودة للمؤسسات والنظم وتبدو مقصودة ومعروفة للجميع. أما الوظائف الكامنة فهي غير مقصودة وغير معلنة فهي أهداف خفية للمؤسسة.

الاختلال الوظيفي: يقصد به وجود عنصر من عناصر المجتمع أو أحد عملياته تهدد استقرار النظام الاجتماعي كالجريمة.

مقولات النظرية:

ويمكن القول بوجه عام إن النظرية الوظيفية تقوم على ست أفكار رئيسية:

يمكن النظر إلى أي شيء – سواء أكان كائنًا حيًا أو اجتماعيًا أو فردًا أو مجموعة، أو تنظيمًا رسميًا أو مؤسسة أو مجتمعًا أو حتى العالم بأسره على أنه نسق أو نظام System وهذا النسق يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة، لكل جزء وظيفة محددة يقوم بها للمحافظة على النسق.

لكل نسق احتياجات أساسية لابد من الوفاء بها، وإلا فإن النسق سيفنى أو يتغير تغيرًا جوهريًا، فالمجتمع في حاجة لتنظيم أساليب السلوك وفي حاجة لإضافة أفراد جدد وفي حاجة لمجموعة لرعاية الأطفال و في حاجة إلى القيم و الضبط وهكذا.

يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسطة عدة متغيرات أو بدائل alternativesفحاجة المجتمع للتماسك تتحقق عن طريق قوة العادات والتقاليد، وسيادة قدسية الدين، و حاجة المجتمع إلى الأخلاق والقيم تتحقق عن طريق الدين و التربية.

توازن النسق قضية جوهرية، فلابد أن يكون المجتمع في حالة توازن Equilibrium ولكي يتحقق هذا التوازن لابد أن تلبى كل حاجات النسق، و التوازن يتم من خلال تكامل مكونات النسق وترابطها، بحيث تقاوم أي تغيرات قد تضر بقاء النسق، وإذا حدث أي تغير، فإن النسق يرجع إلى حالة التوازن بصورة تلقائية.

لكل جزء من أجزاء النسق سمة تؤثر في بقائه وتوازنه، فقد يكون وظيفيًا أي يسهم في تحقيق التوازن، وقد يكون معوقًا وظيفيًا أي يقلل من عدم التوازن، أو قد يكون غير وظيفي أي عديم القيمة بالنسبة للنسق.

وحدة التحليل هي الأنشطة والنماذج المتكررة والصور العامة للسلوك، وليست وحدات فردية محددة فالتحليل الوظيفي لا يحاول أن يشرح كيف ترعى و تربي أسرة معينة أطفالها، وإنما يهتم بكيفية تحقيق الأسرة –كنظام– لهذا الهدف من خلال الاستفادة من معطيات النسق الديني.

يتضح مما سبق أن النظرية البنائية الوظيفية تنظر إلى المجتمع باعتباره نسق في حالة توازن، وهذا النسق هو بناء منظم وثابت مكون من عدد من الأجزاء المترابطة، ولكل جزء (أو نظام) من هذه الأجزاء وظيفة يؤديها للحفاظ على بقاء النسق وتوازنه.

تالكوت بارسونز : كنموذج لأصحاب النظريات الوظيفية.

يعد تالكوت بارسونز من كبار علماء الاجتماع الامريكيون الذين تبنوا النظرية البنائية الوظيفية، التي تهتم بتحليل وظائف النظم الاجتماعية وبنية الجماعات والمجتمعات، وتتميز كتاباته بالعمق والتعقيد.

ساهم بارسونز في تحول علم الاجتماع الامريكي من النظرية النفسية الاجتماعية (السيكوسوسيولوجية) ذات الصبغة الذاتية الى المنظور الشمولي المعادي للفردية والذي سيطر على علم الاجتماع في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كان بارسونز أول عالم اجتماعي يطور نظرية متماسكة عن المجتمع باعتباره كلاً متكاملاً، وذلك بالنمط الامبيريقي السوسيولوجي المقابل للنمط السائد وهو النمط النظري.(1) والمثير للانتباه انه برغم اهتمام بارسونز الكبير بتحليل البناء الاجتماعي ووظائفه باعتباره نسق اجتماعي، الا ان أعماله لم تخل من اهتمام وإن كان اقل بالفعل الاجتماعي وتحليله باعتباره أحد وحدات النسق ايضاً، ولذلك سنسعى في الصفحات التالية تناول نظريتي النسق الاجتماعي والفعل الاجتماعي لدى بارسونز.

نظرية النسق الاجتماعي لبارسونز

يفترض بارسونز أنه يمكن تحليل المجتمعات باعتبارها أنساقاً، وأن تواتر الفعل الاجتماعي يؤدي الى ظهور النسق الاجتماعي أو النظام الاجتماعي الذي تجتمع عناصره من بعد ذلك في عملية التوافق أو التوحد المعياري والرمزي أو التوحّد الثقافي.

حاول بارسونز أن يطرح عدة تعاريف حول النسق الاجتماعي وربما كان أوضحها تعريفه التالي الذي يرى فيه أن النسق الاجتماعي عبارة عن فاعليين أو أكثر يحتل كل منهم مركز أو مكانه اجتماعية متميزة عن الأخر ويؤدي دوراً متميزاً (فهو عبارة عن نمط) منظم يحكم العلاقات بين الأفراد وينظم حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض، كما أنه يعتبر أطارًا من المعايير أو القيم المشتركة بالإضافة إلى أنه يشتمل على أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة.

حدد بارسونز أربعة وظائف أساسية للنسق الاجتماعي، وبعبارة أخرى لا بد لكي يعمل النسق أن يكون قادراً على حل اربع مشكلات أساسية وهو يسميها هذه جميعاً" المستلزمات الوظيفية " أو " المتطلبات الوظيفية " وهي لا تعمل فحسب في التنظيم الاجتماعي، بل تتعلق بالحاجات الشخصية لأعضاء المجتمع وهذه المشكلات أو الشروط ، أو الوظائف الأربع هي :

تحقيق الهدف، التكيف مع البيئة ،التكامل، الحفاظ على النمط وضبط التوتر.

- **الوظيفة الأولي: الوصول إلى الهدف**

أي فاعلين بداخل أي نسق اجتماعي يسعون إلى تحقيق أهداف، وإلا ما كان هناك نسق أصلا، ومع أن الفاعلين يشغلون مراكز اجتماعية مختلفة، ويؤدون أدوارا مختلفة، إلا أن هناك أهدافا جمعية يجب السعي إليها ، والعمل على تحقيقها ، وعن طريق تنظيم المراكز وتحديد الأدوار داخل كل جماعة ، ومن خلال توضيح الوسائل والغايات يتجه النسق الاجتماعي نحو تحقيق أهدافه التي رسمها لنفسه .

- **الوظيفة الثانية التكيــف :**

وهو يقصد به أن كل نسق فرعى داخل نسق أكبر (بناء جزئي داخل بناء اجتماعي كلى) عليه أن يخضع ظروف البيئة الاجتماعية والمادة لمشيئته ، ويسيطر عليها ، حتى يمكنه أن يستمر فيها ويحقق أهدافه ، وكذلك يجب أن تتكامل وظيفة النسق الاجتماعي الفرعي (البناءات الاجتماعية الأقل) مع وظيفة النسق الاجتماعي الأكبر ، كما ينبغي ألا تتعارض وظيفة اى نسق فرعى مع أهداف أي أنساق فرعية أخرى .

- **الوظيفة الثالثة التكامــل :**

ويعنى بالتكامل العلاقات التي تتم داخل النسق الاجتماعي بالذات، وهو يرى أن دراسة العلاقات الداخلية بين أفراد النسق ذات منظور سسيولوجى أصيل، وذلك لأن العلاقات الإنسانية تختلف عن العلاقات بين الكائنات الحيوانية والحشرية الأخرى. فمجتمع الحشرات مثلا يشترك مع المجتمع الانسانى في وظيفة تحقيق الهدف وفي وظيفة التكيف – فالحشرات لها تنظيم اقتصادي (إنتاج وتوزيع واستهلاك) كما تعمل على استمرار النوع ، وأيضاً تتكيف الحشرات مع البيئة الخارجية بما فيها من حرارة ورطوبة وظلمة ونور وتضاريس .

■ **الوظيفة الرابعة المحافظة علي النمط**

يري بارسونز أن المجتمع ما هو إلا "كل" يتكون من نظم متفاعلة، تتميز بقدر من الاستقرار والاتساق، وتفترض علي الأفراد مجموعة من ميكانيزمات الضبط الاجتماعي التي تحفظ علي وحدة المجتمع.

وهكذا فالنسق عنده كُلّ مكوّن من أجزاء تتشارك في قيم خلقية مشتركة تحقق التكامل الاجتماعي للنسق وتحافظ عليه، وتتحدد هوية كل عنصر من النسق بعلاقته بباقي العناصر، ونشأته واسهامه في بقائها. وتلك هي فكرة التساند التي يصل لها الأمر في النهاية الى التوازن الاجتماعي، فحالة التوازن هي الاطار المرجعي الذي يتناول على أساسه بارسونز بالتحليل كافة عمليات النسق الاجتماعي، وهذا الدافع الى ايمانه الوظيفي بأن الحقيقة الكونية والانسانية هي حقيقة متوازنة.

ويرتبط مفهوم التوازن بمفهوم النظام والتساند، حيث يشير هذا الاخير الى حالة من التوازن السوي ككل، وتعني حالة الفاعلية العادية أن النسق لديه ميلاً ذاتياً للحفاظ على التوازن بمعنى دعم النسق لأنماطه المتكاملة والمستقرة والمتبادلة والثابتة، فإذا حدث

خلل أو انحراف في اجزاء النسق الاجتماعي فعلى هذا الأخير أن يتولى حله وعلاجه للحفاظ على التوازن من جديد[1].

ان الانحراف والتوتر والضغوط توجد كلها كعناصر تعويق وظيفي تميل إلى ان تصبح ذات طابع نظامي أو الى أن تُحل في خضم الاتجاه نحو التكامل أو التوازن الاجتماعي، ولكن التغير لابدّ منه، بحيث يأخذ التغير الاجتماعي طابعاً توافقياً تدريجياً فإذا كان هناك تغير اجتماعي سريع فإنه يقع داخل النظم الثقافية أكثر مما يقع داخل النظم الاقتصادية. وينطوي كل تغير اجتماعي مهما كانت سرعته على ميل نحو ترك الاطار النظامي الاساسي على ماهو عليه، وفي هذا المقام كتب بارسونز في كتابه " النسق الاجتماعي " يقول:" اذا كنا نريد أن نتحدث عن نظرية في التغير، فلا بد أن يكون لدينا نموذج محدد يستعمل كإطار مرجعي في دراسة التغير)."

المعايير (والنسق برمته) تدعمه قيم أساسية مثل الولاء

ويحتاج الشكل السابق (نموذج النسق الاجتماعي عند بارسونز) إلى قدر من التوضيح: يشمل مفهوم النسق الاجتماعي البناء والأداء الوظيفي معاً. وكل نسق من الأنساق الفرعية الأربعة يشبع حاجة إنسانية أساسية. ويشير بارسونز إلى هذه الحاجات بـ"الدوافع" أو "اللوازم الضرورية". فالاقتصاد يشبع دافع التكيف (أي الاحتياجات المادية)، وتوفر الأنساق السياسية الفرعية أو نظام الحكم إطاراً مؤسسياً لتحقيق الأهداف،

وتعمل المؤسسات القرابية على المحافظة على النمط (أنماط السلوك المقبولة) وإدارة التوتر (العواطف)، ويحقق النسق الثقافي والاجتماعي الفرعي وظيفة التكامل (التنسيق بين مختلف أجزاء النسق وضبطها) والوصول إلى الأهداف.

وتبدو الوظيفة التكاملية للنسق الثقافي والاجتماعي على درجة كبيرة من الأهمية في النظرية الوظيفية. ويتحقق ذلك من خلال تعزيز القيم والسلوك المقبول اجتماعياً، وهي وظائف مألوفة للكنيسة والمدرسة. وتخترق هذه القيم النسق بأكمله، وهي أساس الإجماع الاجتماعي الذي يدعم النظام الاجتماعي. والمجتمع عند بارسونز – شأنه شأن دوركايم – كيان أخلاقي يتطلب انصياعاً من أعضائه حتى يؤدي وظائفه بفاعلية. ويرى بارسونز – مثله في ذلك مثل معاصره إدوارد شيلز – أن صفوة المجتمع عليها دور مهم في المحافظة على نسق القيم. وقد وُجه انتقاد إلى كليهما – لاتجاههما إلى مساواة قيم الصفوة بقيم المجتمع – من جانب منظري الصراع الذين أشاروا إلى القيم الطبقية والسلالية وغيرها من القيم المتعارضة بين الجماعات.

نظرية الفعل الاجتماعي

يرى بارسونز أن الفعل الاجتماعي ما هو إلا نسق معقد من السلوك، يمكن تقسيمه إلى أجزاء ليمكن تحليلها ودراستها في علاقاتها المتبادلة، ويحتوى كل نسق من السلوك على " الفاعل " والهدف، والموقف، والرموز والقيم التي توجهه ، ودراسة أي نسق من السلوك توضح لنا كيف يعمل أو يفعل أو يؤدى وظيفته، ولكن الأفعال بذاتها لا تتجزأ إمبريقياً إلى أفعال مادية محسوسة مستقلة، ولكن يجب التأمل إلى الفعل على أنه منظم، ولذلك فإن عناصر الفعل توجد في مستويات تجسد إمبريقياً أنماط متنوعة من التنظيم.

أولا : الفاعل , دور الفاعل بإعتباره الفرد الواعي الذي يقوم بأداء الفعل عن طريق استخدامه لفعله وذاته ، وإن يتم إتخاذ القرار بصورة واعية وتترجم في عدد من التصرفات أو السلوك العقلاني .

ثانياً : الموقف , يعتبر نوع من الظروف التي يكون فيها الفاعل مجبراً لإتخاذ قرار يتم اختياره بنفسه ، ويترجم ذلك في مجموعة الأدوار الوظيفية التي يقوم بها الفرد في حياته اليومية ، أو الجماعات داخل النسق أو النظام الذي توجد فيه .

ثالثا: توجيهات الفاعل : فلقد ميز بارسونز بين نوعين من التوجيهات :

1 – التوجيهات الدافعية : ويتضمن هذا النوع من التوجيهات مجموعة من الجوانب التي توجه الفاعلين للقيام بأعمال أو أفعال أو سلوكيات تجاه الموقف الذي يواجههم ، وذلك من اجل إشباع حاجاتهم أو متطلباتهم الفردية أو الجمعية أو النسقية وينقسم هذا النوع من التوجيهات إلى ثلاث أقسام فرعية وهى :

- **التوجيهات الإدراكية**
- **التوجيهات الانفعالية**
- **التوجيهات التقويمية**

2– التوجيهات القيمية: ويعكس هذا النوع من التوجيهات عدد من المعايير والقيم التي يؤمن بها الفرد ويعتنقها من خلال مجموعة المعتقدات والأعراف والتقاليد التي توجد في النسق أو البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها .

سعى بارسونز إلى تقسيم التوجيهات القيمية إلى ثلاث أنواع فرعية:

- التوجيهات المعرفية.
- التوجيهات التقديرية.
- التوجيهات الأخلاقية

وصنف بارسونز الفعل الاجتماعي إلى ثلاثة أنواع هي :

. الفعل التمهيدي (التهيئي) اي التصرف الذي يتوجه نحو انجاز هدف أولي لكي يساعد الفاعل على تحقيق هدف اكبر واثمن من الأول . بتعبير آخر، انه تصرف أولي يكون ممهداً للقيام بتصرف أكثر مراداً وأهمية بالنسبة للفاعل.

. الفعل التعبيري : اي التصرف الذي يحقق الهدف الأكثر مراداً وثمناً يأتي بعد تحقيق الفعل التمهيدي.

. الفعل المعنوي: إي التصرف الذي يعكس مصالح الفاعل الذاتية والقيمية والثقافية.

نقد النظرية البنائية الوظيفية:

يمكن استعراض أبرز الانتقادات التي وجهت للنظرية البنائية الوظيفية في النقاط التالية :

- لقد انصب التركيز على الجوانب الثابتة من النسق الاجتماعي اكثر من الاهتمام بالأبعاد الديناميكية المتغيرة, وكانت الابعاد الثقافية للنسق الاجتماعي اكثر استخداما في التفسير من غيرها من مكونات النسق
- المبالغة في محاكاة نموذج العلوم الطبيعية, وخاصة نموذج علوم الحياة, وكأن النسق الاجتماعي كائن عضوي تحكمه نفس القوانين التي تحكم حركة الكائنات الحية
- يؤخذ على الاتجاه البنائي الوظيفي انه احادي النظرة، بمعنى أنه لا يرى ويبحث في النسق الاجتماعي الا ابعاد التوازن والوظائف وتحقيق الاهداف, فلا يهتم بتحليل ابعاد اخرى مثل ابعاد التغير والاضطراب والامراض والمشكلات الاجتماعية.
- استبعاد فكرة التغير الاجتماعي وخاصة الجذري والشامل، وحتى وان اعترف النموذج البنائي الوظيفي بشيء من التغير الاجتماعي النابع من عوامل كائنة داخل النسق , فانه لا يعطي أي اهتمام, بل لا يهتم مطلقا بالتغير الاجتماعي الذي يتم بفعل عوامل من خارج النسق الاجتماعي

- اهمل الاتجاه البنائي الوظيفي فكرة الصراع الاجتماعي, مع ان هذا المتغير اساسي في فهم تغير وتطور المجتمعات الانسانية الصناعية والنامية منها على حد سواء.
- صعوبة اختبار كثير من المفاهيم والتصورات والقضايا التي يستند اليها الاتجاه البنائي الوظيفي في فهم المجتمع.
- لا يطرح اسئلة رئيسية وجذرية حول غاية الفعل الاجتماعي ,فهو يهتم فقط بنتائج الفعل واستمراره دون النظر في مضامينه وغاياته البعيدة

الانتقادات التي وجهت لبارسونز:

أهم نقد وجه لبارسونز بأنه استخدم مصطلحات علم النفس كالدوافع، الشخصية حيث وصفت نظريته بأنها ذات طابع سيكولوجي أكثر منه سوسيولوجي.(الفوال، 2005م ، ص166)

وهناك تساؤلا مهما نتج عن حملة الانتقادات التي وجهت إلى بارسونز عما إذا كان نسق المفهومات عند بارسونز يرتبط بأحداث تقع في العالم الحقيقي.

لا جدال أن هذا الاتجاه النقدي الموجه إلى بارسونز له أهميته ، لأن استراتيجية بارسونز تفترض أنه من الضروري أن نصيغ نسقا محكما من المفهومات ، يدرك إدراكا ملائما السمات الظاهرة للعالم الاجتماعي ، و منه تبرز مجموعة من القضايا النهائية ، و التحدي الأكبر الذي يواجه استراتيجيته و جوهر شكل التنظير الوظيفي عند بارسونز هو التأكيد بأن النسق الكامل النضج للمفهومات لا يعكس إلا سمات غير ملائمة عن الأنساق الاجتماعية الواقعية.

لقد تزايدت حملة الاتهامات بعد نشر كتاب النسق الاجتماعي، الذي عرض فيه بارسونز عرضا واضحا لفكرة تكامل الأنساق الاجتماعية، وبطريقة تماثل ما عرضه راد كليف بارون و دوركايم من أن التأكيد على الحاجة أو لزوميات التكامل في الأنساق الاجتماعية يؤدي في راي النقاد إلى اهتمام غير مناسب و غير متوازن بتلك العمليات التي تحدث داخل الأنساق الاجتماعية ليواجه و يشبع هذه الحاجة إلى التكامل.

كما كان من ضمن الانتقادات التي وجهت لبارسونز مشكلة الحشو وتكرار المعنى و هي إحدى الانتقادات الأساسية التي تعترض منظور بارسونز الوظيفي، و المقصود بالحشو و تكرار المعنى في فكر بارسونز نجده في صياغة بارسونز عن الحاجات الأربعة للنظام حيث نجد أنها مبنية على افتراض أن تلك الحاجات غير محققة و لذلك فإن بقاء النظام يكون مهددا أو معرضا للخطر ، و مع ذلك فعندما طبق بارسونز هذا الافتراض أصبح من الضروري التعرف على مستوى الفشل في مقابلة كلا من هذه الحاجات لإبراز أزمة النظام من أجل البقاء، كيف يستطيع الفرد أن يحدد متى لا تكون حاجات التكيف مقابلة للنظام.

إنه لما لم يكن هناك بعض الطرق لتحديد ما يعين على بقاء النظام أو عدم بقاءه فإن الافتراضات المدعمة بالوثائق عن مشاركة إو إسهام البنود بالنسبة لمقابلة حاجات البقاء تصبح حشوا أو تكرارا للمعنى ، فالجزء أو العنصر يقابل حاجات بقاء أو عدم بقاء النظام ، لأن النظام موجود و بناء على ذلك يجب على النظام أن يكون باقيا.

إذا فبارسونز لم يقدم إجابة على التساؤلات المتعلقة بمشكلة الحشو و تكرار المعنى حيث أنه لم يعطي إجابات على المستويات أو المعايير التي بواسطتها يمكننا التعرف على مدى قابلية النظام للحاجات الوظيفية الأربعة من أجل الحفاظ على بقائه و استمراره ، فعلينا أن نعرف متى تكون حاجات النظام متقابلة أو غير متقابلة.

مصطفى خلف عبد الجواد, قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع ,جامعة القاهرة , مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية , 2002.

الفصل السادس:
النظريات البنائية (منظور الصراع عند كارل ماركس)

الماركسية (بنائية الصراع I)

(١) مم يتكون المجتمع؟ يتكون المجتمع من طبقات فى رأى ماركس. وتوجد طبقتان اجتماعيتان رئيسيتان فى جميع المجتمعات، باستثناء أكثر أشكالها بساطة. وعلاقة الناس بوسائل الإنتاج هى التى تحدد الطبقة التى ينتسبون إليها. والطبقة الأقوى هى التى تملك وسائل الإنتاج (الأرض، المصانع)، أما الطبقة الأضعف فهى التى تبيع قوة عملها من أجل لقمة العيش. وفى المجتمع الرأسمالى (أى المجتمع الذى يقوم على اقتصاد المشروع الخاص) تكون الطبقة الرأسمالية (أو الطبقة البورجوازية كما أسماها ماركس) هى الطبقة الحاكمة، والطبقة العاملة (أو البروليتاريا) هى الطبقة الخاضعة. وبلغة أخرى فإن رجال الأعمال يتحكمون فى العمال من وجهة نظر ماركس.

(٢) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ يقوم المجتمع بأداء وظائفه– فى رأى ماركس– من خلال الصراع الطبقى أساساً. فكل طبقة تسعى بالطبع إلى تحقيق مصالحها، وهذا يجرها إلى صراع مع الطبقات الأخرى. وقد ركز ماركس بصفة خاصة على الصراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة البروليتارية فى المجتمع الرأسمالى. وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقاً.

(٣) لماذا تكون بعض الجماعات فى المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ الطبقة هى أساس القوة فى رأى ماركس. وبعض الطبقات أكثر قوة من الأخرى؛ لأنها تحوز قدراً أكبر من الملكية والثروة، وهذا يزودها بالوسائل التى تمكنها من حماية ما تحوزه والمحافظة عليه. وعلى عكس الوظيفيين لا يرى ماركس أن هذه الحالة حتمية وضرورية، فهو يعتقد أن الاشتراكية يمكن أن تحقق مشاركة أكثر عدالة فى القوة والملكية والثروة.

(٤) ما الذى يسبب التغير الاجتماعى؟ يحدث التغير الاجتماعى نتيجة للصراع الطبقى. فالصراع الطبقى هو محرك التاريخ. وفى أواخر العصور الوسطى كان هناك صراع بين الارستقراطية والبورجوازية الصاعدة. وفى المجتمع الرأسمالى يكون الصراع أساساً بين البورجوازية والبروليتاريا. ويمثل انتصار الطبقة الجديدة منعطفاً إلى حقبة تاريخية جديدة، ومن ثم فإن بزوغ البورجوازية أدى إلى الولوج فى الحقبة الرأسمالية. وهكذا يستمر الرأسماليون فى بحثهم الدؤوب عن الموارد والأسواق، لدرجة أن النظام الرأسمالى أصبح نظاماً عالمياً.

(٥) هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟ المجتمع فى حالة صراع جوهرى بين الطبقات، ومع ذلك يعترف ماركس بأن فترات النظام والتوازن الاجتماعيين يمكن أن تحدث، حيث يفتر خلالها الصراع الطبقى لفترة مؤقتة، وهذه الفترة تفيد الأغنياء أكثر من الفقراء، والأقوياء أكثر من الضعفاء.

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ هناك مدرستان فكريتان رئيسيتان بين الماركسيين حول علاقة الفرد بالمجتمع، وهو ما يعكس غموضاً فى أعمال ماركس نفسه. وتذهب المدرسة الأولى إلى أن الفرد لا حول له ولا قوة، لدرجة أنه لا يستطيع التأثير فى حياته أو حياة الآخرين. ومن يعتنقون هذا الرأى ينظرون إلى الصراع الطبقى والثورة الاشتراكية على أنهما حتميان، بغض النظر عما يمكن للفرد أن يقوم به. ومع ذلك يرى بعض من الماركسيين أن هناك دوراً أكبر للفرد فى المجتمع، إلا أنهم يرون أن المصدر الرئيسى لهوية الفرد يأتى من عضويته فى الطبقة.

(٧) ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يهدف علم الاجتماع إلى وصف وتحليل وتفسير الصراع الطبقى. كما يرغب الماركسيون فى تغيير العالم باتجاه ماركسى. ومع ذلك فقد تعرضت المجتمعات "الماركسية" فى أوروبا الشرقية لأزمة وتغير فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات. ومن ثم بدأ البديل العملى الرئيسى عن الرأسمالية فى التفتت. ولا يعنى ذلك أن التحليل السوسيولوجى الماركسى للرأسمالية مشوب كله بالأخطاء.

الماركسية (نظرية الصراع I)

إذا كانت الوظيفية تقوم على افتراض أن الإجماع على القيم والنظام الاجتماعى بمثابة أمر عادى فى المجتمع، فإن الماركسيين يرون أن الصراع على القيم والمسائل المادية أمر عادى فى المجتمعات المنقسمة طبقياً. وهذا يعود – فى رأى ماركس – إلى أن مختلف جماعات أو طبقات الناس لها حاجات أو رغبات مختلفة تجلب الصراع بينها فى نهاية الأمر. ومع ذلك يعترف الماركسيون بأن المجتمعات المنقسمة طبقياً يمكن أن تظل فى حالة استقرار ونظام لفترات زمنية طويلة.

منظور الصراع: النشأة والتطور:

ظهرت الماركسية كمذهب و تيار فكري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في شرق أوربا، وقد استوحى ماركس نظريته من التراث الفكــري للفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي، و الاشتراكية الفرنسية، فجاءت نظريتــه مادية صرفة بعيدة عن الميتافيزيقـــة و المثالية، مركزة بحثها على ملكية الأفراد لوسائل الإنتاج – الطبقة الرأسمالية–، وعلى طبقة البروليتاريا الكادحة، و تطور المجتمع من طبقة لأخرى، و الذي يطبعه الصراع بين هذه الطبقات، كما وضع ماركس قوانين جدليــة و تاريخية اتخذها منهجا لنظريته، حيث كان يطمح إلى قيام مجتمع شيوعي، لكن طموحه اصطدم بواقع الرأسمالية المتعصب و انتقـاد بعض المفكرين لنظريته، ثم جاء بعد ماركس تلامذته و بعض المفكريـن المعجبين بنظريتـه الذين اتبعوا خطاه و درسوا الواقـع المعـاش بتطبيق النظرية الماركسية التقليدية عليه، فوجدوها تضم بعض النقائص، فسعوا لتحديثها باكتشاف طبقة وسطى في المجتمع، و إضافة مفاهيـم غابت عن كارل ماركس مع حفاظهم على أساس النظرية الماركسية التقليدية، و بـذلك ولدت الماركسية المعاصرة...فما هي مميزات كل منهما؟؟.

الماركسية التقليدية : (منظور الصراع)

1 –/عوامل ظهور الماركسية التقليدية:

يمكن القول إجمالا بأن الظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية التي سادت في عصر كارل ماركس ساعدته على وضع هذه النظرية و منها:

–التناقضات التي جاء بها تطور النظام الرأسمالي في أوروبا خلال القرن التاسع عشر بين طبقة الملاك الرأسماليين وطبقة العمال الكادحين.

–الفقر المدقع و الاوضاع المزرية التي كان يعيشها عامة الناس، ماعدا قلة منهم.

-الاضطهاد الكنسي الذي كان يمارس شتى الضغوط على المجتمع الأوروبي.

2 -/نظرية كارل ماركس حول الصراع الطبقي:

كارل ماركس (1818– 1883) فيلسوف ألماني، سياسي، وصحفي ، ومنظّر اجتماعي ولد لعائلة يهودية. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي.

يعد ماركس مؤسس اتجاه الصراع الذي هو أحد الاتجاهات الأساسية في النظرية الاجتماعية، بإرساءه فكرة الصراع الطبقي، لكن شهد منظور الصراع تطورات عدة، على مر العقود فلم يكن صراع طبقي فقط بل امتد لأشكال متعددة من الصراع منها الصراع العرقي (رؤية دوبوا) والصراع النوعي (النظرية النسوية).

يرجع ماركس هذا الصراع على تعارض المصالح بين الطبقات الاجتماعية حيث اعتبرها ماركس تناقضات داخلية تظهر في المجتمع، فالطبقات المالكة لوسائل الإنتاج تكون قادرة على استغلال الطبقات الأخرى لصالحها و الطبقات التي يقع على كاهلها هذا الاستغلال مهتمة بإحداث تغييـرات أساسية في هذا النظام، لتضع حدا لاستغلاله، إذا أصبح لدى تلك الطبقات وعي كاف لإحداث ثورة يكـون من نتائجها المزيد من التقدم لتكنولوجي.

المفاهيم الرئيسية للنظرية الماركسية

نمط الإنتاج :يقصد به كيفية تفاعل الناس مع الطبيعة ومع بعضها البعض من اجل حياتهم، هناك أنماط مختلفة للإنتاج "، على سبيل المثال جمع الثمار/ الصيد والزراعة الإقطاعية؛ التجارة، والصناعات التحويلية، تؤثر هذه الانماط على العلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات، فيما يتعلق بمرحلة الحداثة، كان التغيير الرئيسي في نمط الإنتاج من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي.

وسائل الإنتاج: يقصد ماركس بها متطلبات الإنتاج المادية مثل رأس المال, الخامات, الملكية (الارض/ المصنع)....الخ.

قوى الإنتاج: قوة العمل لدى العمال + اشكال التعاون بينهم (تقسيم العمل) 'وسائل الإنتاج "+ (أدوات والآلات والتكنولوجيا)

'علاقات الإنتاج': تنظيم الأنشطة الإنتاجية، وخاصة علاقات الملكية. على سبيل المثال السيد والعبد (العصور القديمة)؛ النبيل، والعبد (الإقطاع)؛ المالك و العامل (الرأسمالية).

المادية الجدلية: Dialectical materialism احد أهم مفاهيم النظرية الماركسية والتي تؤكد على إن أساس الوجود مادي وهو جدلي لأنه مكتظ بالتناقضات التي تنتج عن العلاقات العدائية بين الطبقات, وتفاقم حده التناقضات يدفع إلى التغير الاجتماعي, ومن ثم فالتناقض يرتبط بالتغير.

3 -/ التطور التاريخي للمجتمعات و تطور الملكية:

اعتمدت المدرسة الماركسية على خطيين متوازيين هما : الخط التاريخي/المادية التاريخية، والخط الجدلي الفلسفي/المادية الجدلية لتوضيح وترسيخ نظريتهـــا...

فبالنسبة للمادية التاريخية، يعتقد ماركس أن التطور التاريخي للجماعات البشرية ساهم بشكل فعال في تطور الملكية، و قد حدد لهذه الملكية عدة أنواع و مراحـل، فقد تكون الملكية في ظل:

1 -المشاعية (الشيوعية البدائية) حيث لاطبقات.

2 -العبودية (الاسياد والعبيد) حيث طبقتان، و أوضح ماركس بان العبيد تغلبوا على اسيادهم وكونوا طبقة الاقطاع.

3 -الاقطاع (الاقطاعيون والفلاحين) حيث طبقتان أيضا وهم البرجوازيين الذين اسسوا المدن والفلاحين اتباعهم.

4 -المرحلة الرأسمالية (الرأسماليون يملكون وسائل الانتاج والبروليتاريا لايملكون وسائل الانتاج) حيث طبقتان أيضا وهي آخر مرحلة فئة الطبقتين.

5 -الاشتراكية حيث لاطبقات وحيث كل شئ مملوك للدولة.

6 -الشيوعية وهي المرحلة الاخيرة حيث لاطبقات ولا دولة.

و من خلال هذه الأنظمة المتعاقبة، توصل كارل ماركس إلى أن المجتمع ينقسم إلى طبقتين: الأولى رأسمالية مالكة لوسائل الإنتاج، و الثانية تتمثل في طبقة البروليتاريا الكادحة والتي من شأنها القيام بالثورة ضد الطبقة الأولى لتستعيد مكانتها في المجتمع.

و أما بالنسبة للمادية الجدلية، فقد قام تحليل ماركس على أساس الظروف المادية بعيدا عن القوى الروحية، و من ثم أسس نظريته الاجتماعية على قوانين ثلاثة هي:

*قانون وحدة الأضداد وصراعها.

*قانون الانتقال من التغير الكمي إلى التغير الكيفي.

*قانون نفي النفي. و في هذا الاتجاه، تأثر ماركس بالفيلسوفين الالمانيين هيجل وفيورباخ، معتبرا تطور المجتمعات يسير على مسارين:

مسار مجرد : و أوضح بان هناك بناءا تحتيا وهو الاقتصاد(قوى الانتاج /العمالة وهم الآلة وعلاقات الانتاج بين مالكي وسائل الانتاج وقوى الانتاج)، وبناءا فوقيا وهي النظم الاخرى بالمجتمع كالقيم والدين.

ومسار ملموس: وهو وجود طبقتين (الرأسماليين والعمال) وهناك صراع بينهم بناء على فائض القيمة.

وبالتالي فهناك علاقة جدلية بين البناء التحتي و الفوقي، أي بين قوى و وسائل الإنتاج و بين نظم و قيم المجتمع، ثم بين طبقتي المجتمع : الرأسماليين و العمال.

4-/مبادئ النظرية الماركسية التقليدية:

تقوم النظرية الماركسية على عدة مبادئ يمكن تلخيص أهمها في:

1 - -أنها تعبير عن صراع طبقي ومصالح مادية.

2 - -المهم ليس فهم العالم بل العمل على تغييره.

-3 -المادة توجه العالم وتفسر التاريخ.

-4 -التاريخ عند الماركسية عبارة عن صراع بين الطبقات نتيجة عوامل اقتصادية.

-5-الاقتصاد وعلاقات الإنتاج هما أساس كل ظاهرة اجتماعية.

-6-الدعوة لتغير العالم لصالح الكادحين (البروليتاريا)، مع رفض قاطع للميتافيزيقا

-7-تفسير الأحداث والتاريخ بناء على نظام الملكية.

-8-محاربة الأديان واعتبارها وسيلة لتخدير الشعوب، وخادماً للرأسمالية والإمبريالية.

-9-الإيمان بأزلية المادة وأن العوامل الاقتصادية هي المحرك الأول للأفراد والجماعات.

-10-الأخلاق نسبية وهي انعكاس لآلة الإنتاج.

-11-القضاء على الاستغلال الفردي وسحق الفرد.

5 -تقييـــم النظرية الماركسية:

كأي نظرية وجهت إلى ماركس بعض الانتقادات أهمها:

-إتهام سوروكين لماركس بأن نظريته تقوم على الحتمية أو أساس ميتافيزيقي و تقوم على جانب واحد فقط حيث أنها في حقيقة الأمر علاقة تبادلية تأثر و تأثير.

-بوتومور وجه انتقادات لماركس و أهمها:

*أن فروض ماركس لها صفة قوانين عامة لكنها مجرد مبادئ.

*نظرية ماركس تعتريها أخطاء فيما يخص الوصف الفعلي لنمط الصراع و التوازن، و لكنه أيده من في خلال الوجهة التاريخية

-كذلك نظرية ماركس تبقى ناقصة و أن الصراع الطبقي لم يتم في الطبقة الرأسمالية للانتقال إلى الطبقة الاشتراكية و من ثم إلى الشيوعية كما كان يطمح.

رغم الانتقادات الموجهة إلى كارل ماركس إلا أنه ترك إسهامات سوسيولوجية مهمة أهمها:

–ارتكز كارل ماركس في تحليله للظواهر الاجتماعية على العوامل المادية مبتعدا على الغيبيات و الروحانيات مما يخضع الظواهر لدراسة علمية.

–أكد على أهمية تفسير العوامل السوسيولوجية في ضوء تفسير العوامل التاريخية.

–النظرية الاختيارية للفعل الاجتماعي هي أن الثورة لا تحدث من تلقاء نفسها و إنما يدفع بها الناس، و اشتق ماركس مفهوم الفعل الاجتماعي

من المبادئ الكلاسيكية:

" الغاية تبرر الوسيلة" بطريقة آلية، و أن سعي الأفراد لتحقيق أهدافهم يلزمهم بالتفاعل مع العالم المادي، هذا الأخير الذي يستلزم وجود علاقات اجتماعية تنشأ عنها الحاجة إلى التكنولوجيا و هذا ما أطلق عليه ماكس قوى علاقات الإنتاج .

الفصل السابع :
النظرية البنائية عند ماكس فيبر

ماكس فيبر: نظرية الفعل الاجتماعى (نظرية الصراع II)

أسهم ماكس فيبر إسهاماً بارزا فى كل من الاتجاهين: التأويلى والبنائى فى علم الاجتماع. ومع ذلك فقد كانت نقطة الانطلاق عنده وهدفه النهائى – فى زعمه – هى تحليل الفرد:

> *"يدرس علم الاجتماع التأويلى الفرد وفعله باعتباره الوحدة الأساسية لهذا العلم أو ذرته ... وبذلك يكون الفرد هو أيضاً النهاية القصوى للفعل ذى المعنى والناقل الوحيد له ... وبالنسبة لعلم الاجتماع بصفة عامة فإن مفاهيم مثل "الدولة" و"المنظمة" و"النظام الإقطاعى" وما شاكلها إنما ترمز إلى طوائف معينة من التفاعل الإنسانى. ومن هنا تكون مهمة علم الاجتماع اختزال هذه المفاهيم إلى فعل "قابل للفهم"، إى دون استثناء أفعال الأفراد المشاركين".*
>
> *(Quoted in Gerth & Mills (eds.), ١٩٧٠: ٥٥)*

ويصعب أن نعثر على التزام أوضح من هذا بعلم الاجتماع التأويلى: علم اجتماع الفعل الاجتماعى. ومع هذا، وعلى الرغم من هذا الإقرار الواضح بعلم الاجتماع التأويلى من حيث المبدأ، فإن الإسهامات النظرية الرئيسية لفيبر فى علم الاجتماع تقع فى دائرة التحليل البنائى.

نظرية الفعل الاجتماعى (بنائية الصراع II): فيبر

(١) مم يتكون المجتمع؟ ينشأ المجتمع من خلال التفاعل الاجتماعى الذى يقصد به سلوك الناس الذين يرتبطون بعضهم ببعض عن وعى. ويقوم الناس بتشكيل النظم من خلال عملية التفاعل. ومع أن الناس تقوم بإنشاء مؤسسات مثل المدارس والمصانع ودور العبادة، فإن هذه المؤسسات تؤثر بدورها فى الناس. ويعود ذلك فى جانب منه إلى وجود ضغوط لمراقبة قواعد هذه المؤسسات وإجراءاتها.

وقد انتاب فيبر شعور بأن ماركس بالغ فى التأكيد على أهمية الجماعات الطبقية. ويعترف فيبر بأن الطبقات ذات أهمية، إلا أنه رأى أن ا لأحزاب السياسية وجماعات المكانة (الجماعات الاجتماعية، وجماعات الصداقة) قوى مهمة ومؤثرة فى المجتمع، وليس من الضرورى أن تعتمد هذه على الطبقة كما ادعى ماركس. وقد أكد فيبر كذلك على قوة التنظيمات الكبيرة أو التنظيمات البيروقراطية فى التأثير على حياة الفرد.

(٢) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ تأتى إجابة فيبر عن هذا السؤال لتبرز وعيه بتأثير كل من الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد. فهو من ناحية يؤكد أن الأفكار والمشاعر لدى الناس تؤدى فى بعض الأحيان إلى إثارة الفعل والتأثير فى التاريخ. فعلى سبيل المثال توجد بعض الشخصيات القوية والديناميكية – أو ما أسماها بالقيادات الملهمة (الكارزمية) (مثل المسيح أو نابليون) – يمكن أن تغير بالفعل من مسار الأحداث. ومن

ناحية أخرى أدرك فيبر أن حياة معظم الناس تتشكل وتتحدد بواسطة المجتمع الذى يعيشون فيه، خاصة المؤسسات المباشرة التى يتعاملون معها مثل المدارس وأماكن العمل. وقد اهتم فيبر اهتماماً خاصاً بالمؤسسات الكبيرة فى المجتمعات المعاصرة (مثل المصانع أو الأجهزة البيروقراطية الحكومية) التى تحد من مجال حرية الفرد وإبداعه. ويبدو أن ما كان يزعج فيبر بدرجة أكبر من الوظيفيين، هو أن كثيراً من الناس يصيرون مجرد تروس فى الآلات الكبيرة، إذا كنا بصدد الحديث عن العمل.

(٣) لماذا تكون بعض الجماعات فى المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ القوة أحد المفاهيم المحورية عند فيبر. وفى معالجته لهذه القضية جمع فيبر عناصر من علم اجتماع الإجماع وعلم اجتماع الصراع. فهو يتفق مع الوظيفيين على ضرورة أن يكون بعض الناس أكثر قوة من غيرهم، حتى يتمكن المجتمع من أداء وظائفه بكفاءة. ففى التنظيمات البيروقراطية الحديثة (الخدمة المدنية مثلاً) يوجد دوماً أفراد أكثر قوة على القمة، وآخرون أقل قوة فى القاع، أى أن التنظيمات البيروقراطية منظمة بشكل هرمى. كما يتفق فيبر مع ماركس فى أن الجماعات التى تحوز وضعاً قوياً فى المجتمع تميل إلى استخدام وضعها فى مصلحتها أساساً. ففى مجتمعات العصور الوسطى استخدم الملك والنبلاء القوة فى خدمة مصالحهم، إلا أنهم استخدموها فى بعض الأحيان من أجل الصالح العام.

(٤) ما الذى يسبب التغير الاجتماعى؟ يرى فيبر أن التغير الاجتماعى يمكن أن يحدث لأسباب عديدة. وبلغة أكثر دقة فإن التغير الاجتماعى متعدد العوامل وفقاً لتحليل فيبر. فالأفكار والاختراعات الجديدة والحروب، وصعود وأفول جماعات القوة والأفراد المؤثرين وغيرها من العوامل – كلها تسهم فى التغير التاريخى وتعد جزءاً منه. وفى إصراره على تعدد أسباب التغير الاجتماعى رغب فيبر فى أن يميز موقفه عن موقف ماركس، حيث رأى أنه – أى ماركس – قد بالغ فى التأكيد على الصراع الطبقى كسبب للتغير.

(٥) هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟ اشتد الخلاف فى الرأى بشأن قضية التوازن والصراع فى المجتمع بين الوظيفية والماركسية، إلا أن تلك المسألة لم تشكل قضية هامة عند منظرى الفعل الاجتماعى. وفى رأى فيبر أن المجتمع ليس بطبيعته فى حالة توازن أم صراع، فوضع المجتمع يختلف من حالة إلى أخرى. وربما يسود المجتمع الاضطراب لعدة قرون، ثم يعاود الاستقرار لعدة عقود. وقد فضل فيبر أن يدرس حالات خاصة بدلاً من القفز إلى تعميمات حول ما هو "طبيعى".

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ تكتسب علاقة الفرد بالمجتمع أهمية محورية فى نظرية الفعل الاجتماعى. وعلى الرغم من أن فيبر أدرك على نحو تام أن الأفراد يتأثرون بالمؤسسات الاجتماعية مثل الأسرة والمدرسة ومكان العمل ووسائل الاتصال الجماهيرى، إلا أنه لم ينظر إلى تحليل عمل هذه المؤثرات وتداعياتها على أنه الغرض الوحيد أو الأساسى من دراسة علم الاجتماع. إذ أن فهم المعانى التى يخبرها الأفراد فى حياتهم الاجتماعية أكثر أهمية من مجرد تحليل ما يدفعهم أو يؤثر فيهم للتصرف على النحو الذى يتصرفون به. ومع أن فيبر أكد على أن الفعل الفردى تجربة فريدة يمر بها الفاعل الاجتماعى، فقد شعر أنه بمقدوره أن يصل إلى تعميمات بصدد الفعل الاجتماعى؛ لأن هناك فى الواقع أنماطاً شائعة للسلوك الاجتماعى. فقد يتصرف الأفراد بطريقة عقلانية أو وجدانية أو مثالية، ومن الممكن أن يتم تصنيف أفعالهم على هذا النحو. وعلى الرغم من تأكيد فيبر على الخبرات والمعانى الفردية، إلا أنه التزم بعلم الاجتماع العلمى. ومع أن أعمال فيبر تندرج تحت علم الاجتماع البنائى، إلا أنه يعد أيضاً بمثابة الأب المؤسس لعلم الاجتماع التأويلى. وقد شاع المدخل التأويلى وتطور فى أشكال متعددة فى القرن العشرين.

(٧) ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يتمثل الغرض من علم الاجتماع فى فهم وتفسير معنى الفعل والتفاعل الاجتماعيين.

ماكس فيبر

كان ماكس فيبر من المفكرين النظريين الأوائل المهمين. وقد ولد فى ألمانيا عام ١٨٦٤، وتلقى تعليمه الأكاديمى فى التاريخ القانونى والاقتصادى، ثم أظهر اهتمامه تدريجياً بعلم الاجتماع. وفى النهاية أصبح أستاذاً فى عدة جامعات ألمانية. وقد علَّم فيبر تلاميذه أنه يتعين عليهم استخدام "الفهم" أو "الاستبصار" فى عملهم الفكرى، وأوضح أنه لا يمكننا تحليل كثير من سلوكنا الاجتماعى بأنواع المحكات الموضوعية التى نستخدمها عند قياس الوزن أو الحرارة. ولكى يتسنى فهم السلوك فهماً كاملاً ينبغى أن نتعلم المعانى الذاتية التى تلازم أفعال الناس – أي: كيف يرى الناس سلوكهم ويفسرونه؟

ولنفترض على سبيل المثال أن أحد علماء الاجتماع يقوم بدراسة الترتيب الاجتماعى للأفراد فى إحدى الجماعات. ولذلك يتوقع فيبر من الباحث أن يستخدم الفهم لتحديد دلالة التسلسل الاجتماعى للجماعة بالنسبة لأعضائها. وقد يقوم الباحث بدراسة تأثير الألعاب الرياضية، أو الدرجات، أو المهارات الاجتماعية، أو الأقدمية على المكانة داخل الجماعة. ويسعى الباحث إلى تعلم كيفية ارتباط أعضاء الجماعة بأعضاء آخرين ذوى مكانة أعلى أو أقل. ويأخذ الباحث فى اعتباره – عند البحث فى هذه المسائل – عواطف الناس وأفكارهم ومعتقداتهم واتجاهاتهم (L.Coser, ١٩٥٦).

كما ندين بالفضل لفيبر فى أداة تصورية أساسية، وهى النمط المثالى. وهو عبارة عن نموذج تركيبى يُستخدم كمقياس يمكن تقييم الحالات الواقعية بناءً عليه. وقد قام فيبر فى أعماله بتحديد خصائص متعددة للبيروقراطية كنمط مثالى. وفى تقديمه لنموذج البيروقراطية لم يصف فيبر تنظيماً بعينه، ولم يستخدم مصطلح "مثالى" بمعنى يوحى بالتقييم الإيجابى. فقد كان هدفه تقديم معيار مفيد لقياس درجة البيروقراطية فى التنظيم الواقعى (Gerth & Mills, ١٩٥٨). ويُستخدم مفهوم النمط المثالى فى دراسة الأسرة والدين والسلطة والنظم الاقتصادية، وفى تحليل البيروقراطية.

وعلى الرغم من تطابق التخصص المهنى بين إميل دوركايم وماكس فيبر، إلا أنهما لم يلتقيا البتة، ولم يكن كل منهما على دراية بوجود الآخر، ناهيك عن عدم الإلمام بأفكار كل منهما. ومن المؤكد أن هذا الوضع لا ينطبق على أعمال كارل ماركس. إذ أن تفكير دوركايم بشأن تأثير تقسيم العمل فى المجتمعات الصناعية يرتبط بكتابات ماركس، كما أن اهتمام فيبر بعلم الاجتماع الموضوعى المتحرر من القيم كان استجابة مباشرة لآراء ماركس. ومن ثم فليس عجيباً أن يُنظر إلى كارل ماركس على أنه شخصية بارزة فى تطور علم الاجتماع شأنه فى ذلك شأن غيره من العلماء الاجتماعيين.

الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية

إن أهم خصائص النمط الرأسمالي الحديث الذي يوجد فى الغرب هو ما أسماه فيبر بروح الرأسمالية Spirit of capitalism والروح الرأسمالية هي عبارة عن نسق الخلاقيات أو الاتجاهات نحو الحياةوما يجب أن يفعله الإنسان فيها . وقد شرح ماكس فيبر فكرته عن روح الرأسمالية بالتفصيل فى مقالة الشهير (الأخلاق البروتستانطية وروح الرأمالية).

وقد حاول فى هذا المقال أن يشرح اسول الرأسمالية . ومن أهم خصائص الروح الرأسمالية أو الاتجاهات الأخلاقية التي تربط بالروح الرأسمالية الاعتقاد بأنه من الأشياء المفيدة أن ينفق الإنسان طاقاته من أجل الحصول علي دخل أو من أجل جمع المال وأن يفعل ذلك حتي بعد أن تتوفر له احتياجاته الأساسية بمعني أخر أن يصبح جمع المال هدفاً فى حد ذاته أو أن يكون من أهم أهداف الإنسان فى الحياة زيادة ثروته بغض النظر عن الأساليب المتبعة فى ذلك طالما انت الأساليب تتصف بالكفاءة . وتتصف هذه الروح ايضاً بالمرونة والابتكار . وبالطبع كان لدي الناس فى أزمنة وأماكن مختلفة مثل القيم ولكنها لم تكن سائدة بينهم كما حدث فى القرنين الأخيرين فى أوربا وأمريكا بحيث أصبحت هذه القيم ، أي قيم الربح وزيادة الثورة ، ذات اثر عظيم علي الناس ، وادعي ماكس فيبر أن هذه القيم أو هذه الروح تتصف بصفة العمومية فى العالم الحديث ، ولكن هذه الروح أصبحت قوية جداً فى الغرب وذلك يستدعي تفسيراً علمياً ، واثار فيبر سؤالاً مؤداه كيف نشأت هذه الروح الرأسمالية أصلاً؟

قرر فيبر أنه لابد أن يكون هناك عامل ما ارتبط بظهور الروح الرأسمالية أو شجع علي ظهورها ، وقرر أن هذا العامل كان هو قيام الحركة البروتستانطية ورأي أنه كانت هناك عناصر فى الأخلاق البروتستانطية شجعت علي ظهور الروح الرأسمالية ، أولها وأهمها روح التقشف التي تتصف بها البروتستانطية والتي تشكل جانباً ضرورياً من

الروح الرأسمالية وايضاً ذلك الاتجاه الدنيوي المستمد من تعاليم مارتن لوثر ، ومن عناصر هذه الخلاق البروتستانطية أيضاً ذلك التأكيد علي تنظيم الحياة الشخصية للأشخاص المسيحين وعلاقاتهم الاجتماعية ، ومجموع هذه العناصر أدت إلي خلق اتجاه عام فى الأخلاق البروتستانطية يؤكد علي ضرورة أن يحيا الإنسان حياته بطريقة منظمة ومرتبة ونشطة وتتسم هذه الحياة بالسمات اللاشخصية وأهم شيء فى ذلك الاتجاه هو تأكيد الأخلاق البروتستانطية علي الروح الفردية وعلي الاتجاهات الدنيوية ، وقد حاولة فيبر ن يدرس العلاقة بين الدين وبين غيره من جوانب الحياة الانسانية وخاصة الاقتصادية ، ورأي أن هناك بعض الاتجاهات الدينية يمكن أن تساعد علي النشاط الاقتصادي بينما هناك اتجاهات دينية أخري تمثل عقبة فى طريق التقدم الاقتصادي.

ويري عالم الاجتماع الشهير ميتشل أن أهم إسهامات فيبر فى علم الاجتماع هي محاولته تفسير ذلك النسق الاجتماعي والاقتصادي المعروف باسم الرأسمالية علي أسس تاريخية واجتماعية عن طريق استخدام الدراسات المقارنة ، وقد استخدم لتحقيق هذا الهدف عدة أساليب للتحليل أهمها مفهوم النموذج المثالي أو النموذج الخالص ويري ميتشل ايضاً أن فيبر كان يتمتع بالجرأة العقلية وبالالتزام السياسي وبالخصائص المهنية فى عاداته وأسلوب تحليله.

علم الاجتماع والفعل الاجتماعي عند ماكس فيبر

لقد عرف فيبر علم الاجتماع بأنه " ذلك العلم الذي يحاول الوصـــول إلي فهم تفسير للفعل الاجتماعي من أجل التوصل إلي تفسير علمي لمجري هذا الفعل وأثاره"، والفعل الاجتماعي حسب تعريف ماكس فيبر والذي يجب أن يكون موضوع دراسة علم الاجتماع هو أي سلوك يضفي عليه الفاعل معني ذاتياً ، والفاعل حين يقوم بهذا الفعل

الاجتماعي، فإنه يضـــع ســـلوك الآخرين دائماً فى اعتباره ، ويكون فعله بالتالي موجهاً نحو الآخرين.

وقد اعتبر ماكس فيبر أن وحدة التحليل الأســـاســـية للمجتمع هي الشـــخص الفاعل "Acting person" ويقول فى ذلك :

إن علم الاجتماع التفسـيري يعتبر الفرد وفعله هو الوحدة الأسـاسـية أو "الذرة" فالفرد هو الشـــيء الوحيد الذي لديه ســـلوك له معني ... أما المفهومات الأخري مثل الدولة او الرابطة أو الإقطاع فإنها تشير إلي فئات معينة من التفاعل الإنساني . وعلي هذا فإن مهمة علم الاجتماع هي اختزال مثل هذه المفعومات إلي فعل يمكن فهمه ، أي إلي افعال الأفراد المشتركين فى النشاط".

وقد أقام فيبر نظريته علي أسـاس التمييز بين أربعة أنماط أسـاسـية من الفعل الاجتماعي هي :

1-الفعل الرشيد عملياً: الفعل العقلاني الذي يرتبط بهدف ما .

2-الفعل القيمي: الفعل العقلاني الذي يرتبط بقيمة ما

3-الفعل الوجداني أو العاطفي

4-الفعل التقليدي .

الفعل العقلاني الذي يرتبط بهدف ما يتصـــف بأن الفاعل فيه يدرك بوضـــوح هدفاً معيناً يريد تحقيقه وتكون لديه أســـاليب مناســـبة لتحقيق هذا الهدف ، ومثال هذا النوع من الفعل ما يقوم به المهندس الذي يصمم بناء معيناً أو الشخص المضارب فى سـوق الأوراق المالية الذي يهدف إلي تحقيق مكسـب مالي أو القائد الحربي الذي يريد أن يحقق نصراً ما ، أفعال هؤلاء جميعاً أمثلة علي الأفعال العقلانية التي ترتبط بتحقيق هدف معين.

أما **الفعل العقلاني الذي يرتبط بقيمة** ما فهو ذلك الفعل الذي لا يهدف إلي تحقيق هدف خارجي معين بالنسبة للفرد بقدر ما يهدف إلي التمسك بقيمة معينة لها أهمية عظمي عند الفرد . ومثال ذلك الفعل ما يقرره قبطان السفينة من ألا يدعها تغرق وحدها بل يغرق معها أو حين يشترك فرد ما فى مبارزة يعلم أنه يقتل فيها.

أما ما يسميه ماكس فيبر **الفعل الوجداني أو العاطفي** فهو ذلك الفعل الذي ينجم عن حالة عاطفية أو نفسية مباشرة للفرد مثل ذلك حين تصفع الأم ابنها لأنه أتي سلوكاً سيئاً أو حين يضرب أحد لاعبي الكرة زميلاً له فى المباراة ، هذه الأفعال أفعالاً وجدنية وليست أفعالاً عقلانية لأنها ليست موجهة إلي هدف ولا مرتبطة بقيمة معينة ولكنها عبارة عن ردود أفعال عاطفية للفاعل الذي يجد نفسه فى ظروف معينة.

أما **الفعل التقليدي** فإنه ذلك الفعل الذي تمليه التقاليد ، والعادات الجمعية والمعتقدات ، والفاعل فى هذه الحالة لا يأتي فعله من أجل تحقيق هدف ما أو من أجل تمسكه بقيمة معينة أو لأنه مثار انفعالياً ولكن فعله يكون مجرد إطاعة لأعراف تم اكتسابها من خلال عملية التنشئة الاجتماعية.

النمط أو النموذج المثالي عند ماكس فيبر Ideal Type:

تعتمد كل نظرية ماكس فيبر كما قلنا علي هذا التصنيف للفعل الاجتماعي أو علي ذلك التنميط Typology ، وبالتنميط له أهمية خاصة فى نظرية ماكس فيبر فقد رأي فيبر أنه لكي نستطيع تحليل الظاهرات الاجتماعية ، وه يموضوع علم الاجتماع لابد أن تكون لدينا أداة نقوم بالتحليل علي أساها تسهل لنا عملية المقارنة بين هذه الظاهرات وبعضها البعض وهذه الأداة هي ما أسماه فيبر بالنماذج أو الأنماط المثالية الخالصة pure- Ideal types.

فالأربعة أنواع من الأفعال الاجتماعية السابق الحديث عنها تمثل نماذج مثالية أو خالصة للفعل الاجتماعي بمعني أنها لا توجد فى الواقع بهذه الكيفية ولكنها مجرد تصورات عقلية مستمدة من الواقع فعلاً ولكنها لا توجد فيه بهذه الكيفية ، وقد انطلق

فيبر بعد تصنيفه للفعل الاجتماعي إلي تصنيف كافة الظاهرات فى المجال اللاجتماعي فقد صنف بناء علي ذلك مثلاً أنماط السلطة أو السيطرة رأي أن هناك سيطرة أو سلطة عقلانية وسلطة تقليدية وسلطة كاريزماتية .

كما أن تصـــنيفه للمجتمعات ، وكذلك تصـــوره لمراحل التطور التاريخي للمجتمعات الغربية قد اعتمد أيضـاً علي تصـنيفه للفعل الاجتماعي، فالصـفة الرئيسـية للعالم الذي عاش فيه ماكس فيبر كما يقول هي صـــفة العقلانية أو الفعال العقلانية التي ترتبط بتحقيق الأهداف ، والمشـروعات الاقتصـادية ، فى النظام الرأسـمالي هي مشروعات عقلانية كما أن سيطرة الدولة علي المجتمع تكون أيضاً سيطرة عقلانية عن طريق البيروقراطية .

والواقع أن اهتمام ماكس فيبر قد انصـــب علي أول نمط من أنماط الفعل الاجتماعي الأربعة أي الفعل الاجتماعي العقلاني الموجهنحو تحقيق أهداف محدودة لأن هذا النمط من الفعل الاجتماعي هو الذي يرتبط بذلك النموذج المثالي أو الخالص من نماذج المجتمع ويعني به نموذج الرأسمالية الغربية المعاصرة.

مراجع الفصل

- ليلى عبد الوهاب، د ت، النظرية الاجتماعية الكلاسيكية والمعاصرة
- مصطفى خلف عبد الجواد, قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع ,جامعة القاهرة , مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية , 2002.

الفصل الثامن
النظريات التأويلية: التفاعلية الرمزية

المنظورات التأويلية

جرت محاولات أخرى – إلى جانب محاولة فيبر – هدفت إلى أن تجعل من المعنى والقصد الفرديين جزءاً لا يتجزأ من نظرية علم الاجتماع. وتشمل هذه المحاولات: التفاعلية الرمزية، الإثنوميثودولوجيا (المنهجية الشعبية)، والظاهراتية (وهى منظور فلسفى فى أساسه). وتعد التفاعلية الرمزية – أو التفاعلية بلغة بسيطة – أكثر هذه المحاولات تأثيراً وأيسرها على الفهم. وسوف نناقش التفاعلية بقدر من الإسهاب، ثم نعرض باختصار – لاحقاً – للمنهجية الشعبية والظاهراتية.

التفاعلية

تبحث النظريات البنائية التى عرضنا لها فى العلاقة بين الذات والمجتمع من زاوية تأثير المجتمع على الذات. أما أنصار التفاعلية فيتجهون فى عملهم من الذات إلى خارجها، مؤكدين على أن الناس يؤسسون المجتمع. ويطلق على هذا المنظور فى بعض الأحيان التفاعلية الرمزية؛ نظراً لتأكيده على أهمية المعانى الرمزية للاتصال، بما يشمله

من لغة وإيماءات وإشارات. ويسلم أنصار التفاعلية تسليماً كاملاً بالقول بأن المجتمع يصنع الأفراد ويشكلهم، ومع ذلك فهم يعتقدون أن هناك فرصاً مستمرة للفعل الإبداعى (وهو المصطلح المفضل عند توماس W.I. Thomas، وهو من أوائل مناصرى التفاعلية).

وقد تطورت التفاعلية بشكل رئيسى فى جامعة شيكاغو خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. ويعد عالم النفس الاجتماعى جورج ميد (١٨٨٠-١٩٤٩) أكثر أنصار التفاعلية تأثيراً.

ويصف ميد مرحلتين عامتين فى نمو الذات: مرحلة اللعب الفردى Play Stage ومرحلة اللعب الجماعى Game Stage. وتكون علاقة الطفل بالآخرين قبل هاتين المرحلتين علاقة تقليد دون إدراك واع بمعانى الأفعال.

وفى المرحلة الأولى يبدأ الطفل بتجريب أدوار معينة مألوفة مثل دور الأب أو المعلم أو الطبيب. ويمثل "التظاهر" لدى الطفل أداة داخلية قوية للتعلم، ولكنها تكون محدودة. وفى هذه المرحلة لا يتجاوز الطفل ببصره الأدوار الفردية إلى رؤية أكثر عمومية للمواقف الاجتماعية. وكل ما يحاوله الطفل هو أن يقوم بأدوار آخرين مهمين شاهدهم عن قرب أو عن بُعد (وسائل الإعلام). وفى هذه المراحل المبكرة من التعلم يعرف الطفل بعض الأجزاء الهامة للكل دون أن يلم بالكل إلماماً كافياً.

وتشهد المرحلة الثانية تقدماً مزدوجاً. فالطفل – بلغة ميد – لابد له أن يلم باتجاهات جميع الآخرين المشتركين فى اللعبة أو الموقف. وربما يلعب الأطفال المباراة الجماعية بطريقة سيئة، لأنه لم يتكون لديهم وعى بمختلف الأدوار فى الفريق، أو لياقة كافية تناسب الأدوار الأخرى. وبالتدريج يصبح الطفل أكثر وعياً من الناحية الاجتماعية – ليس بالألعاب فحسب – بل وبالمواقف الجماعية الأخرى، مثل تناول الوجبات والخروج للنزهة. ومع ذلك فإن النمو المتكامل للذات لا يتوقف وحده على الوعى بجميع أدوار الآخرين فى موقف ما، وإنما يعتمد أيضاً على المقدرة على إدراك أن الجماعة والمجتمع المحلى أو المجتمع ككل يمارس ضبطاً على سلوك أعضائه. وبهذا المعنى أطلق ميد على الجماعة ككل مصطلح "الآخر العام" Generalised Other. وحينما يتعلم الطفل أن يأخذ فى اعتباره اتجاه الآخر، عندها يصبح عضواً كاملاً فى المجتمع. والحقيقة أن ميد يقول نفس ما يقوله بارسونز. فكلاهما يعترف بحاجة الطفل إلى أن يتعلم قواعد "اللعبة" أو قواعد المجتمع. وقد أولى ميد جانباً كبيراً من اهتمامه بقدرة الفرد على أن يلعب اللعبة بنشاط وإبداع. وهذا يتضح من بعض أفكاره التى نناقشها الآن والتى تكمل ما سبق مناقشته.

يقسم ميد الذات إلى الفاعل (الأنا الداخلى I) والمفعول (الأنا الخارجى Me). والأنا هى الجزء الإيجابى من الذات، أما المفعول فهو الجزء السلبى، أى هو الجزء الذى يؤثر فيه الآخرون (المهمون والعامون). [انظر شكل ١-١]

شكل ١-١
نموذج التفاعلية الرمزية عن التنشئة الاجتماعية
(والخبرة الاجتماعية بصفة عامة)

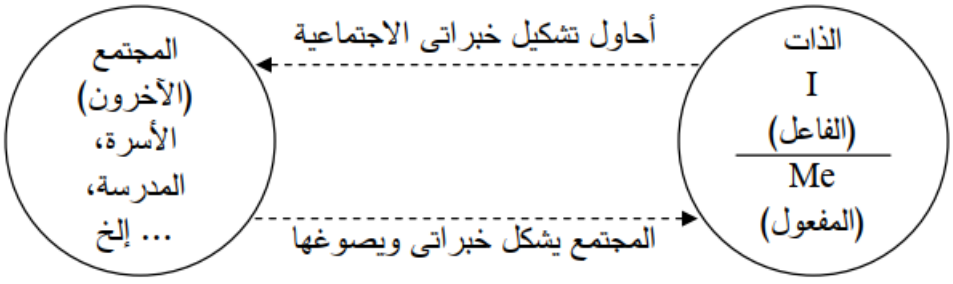

تهتم التفاعلية الرمزية بدرجة أكبر من الاتجاهات النظرية الأخرى بالفرد الفاعل المبدع. وقد تطورت التفاعلية الرمزية منذ ميد على يد عديد من الكتاب، وأصبحت نداً رئيسياً للاتجاه الوظيفى فى الولايات المتحدة. وقد انبثقت التفاعلية الرمزية – شأنها فى ذلك شأن البنيوية – من الاهتمام باللغة، إلا أن ميد طورها فى اتجاه مختلف.

- **الرموز:**

يزعم ميد أن اللغة تتيح لنا أن نصبح كائنات واعية بذاتها، واعية بفرديتها، وأن الرمز هو العنصر الأساسى فى هذه العملية. والرمز شئ يرمز إلى شئ آخر. وتواصلاً مع المثال الذى استخدمه سوسير، فإن كلمة "شجرة" رمز نصور به الشىء، وهو الشجرة. وبمجرد أن نفهم هذا المفهوم فهماً كاملاً – كما يدعى ميد – نستطيع أن نفكر فى الشجرة حتى لو كانت غير منظورة. وقد تعلمنا أن نفكر فى الشىء تفكيراً رمزياً. ويحررنا التفكير الرمزى من حصار خبراتنا التى نشاهدها ونسمعها أو نشعر بها.

وتعيش الكائنات الإنسانية – على العكس من الحيوانات الدنيا – فى كون ثرى ثراءً رمزياً. وهذا ينطبق على إحساسنا الخاص بالذات. (ليس لدى الحيوانات إحساس بالذات

مثل الكائنات الإنسانية). فكل واحد منا كائن واع بذاته، لأننا تعلمنا أن نكون قادرين على أن ننظر إلى أنفسنا من الخارج، أى أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون. وعندما يبدأ الطفل فى استخدام كلمة "أنا" ليشير بها إلى ذاته التى يطلق عليها الآخرون "أنت"، فإنه يُظْهِرُ بذلك بدايات الوعى بالذات.

ويرى أنصار التفاعلية الرمزية أن جميع صور التفاعل بين الأفراد تتضمن تبادلاً للرموز. فعندما نتفاعل مع الآخرين نبحث دوماً عن مفاتيح حول أنسب أنماط السلوك فى السياق الذى يحدث فيه التفاعل، وعن مفاتيح حول كيفية تفسير ما يقصده الآخرون. وتلفت التفاعلية الرمزية انتباهنا إلى تفاصيل التفاعل بين الأشخاص، وكيفية استخدام هذه التفاصيل فى فهم ما يقوله الآخرون ويفعلونه. ولنفرض أن رجلاً وامرأة خرجا للنزهة معاً لأول مرة، فسوف نلاحظ أن كليهما يقضى جزءاً كبيراً من الوقت يكون رأياً عن الآخر، ويقيم احتمالات تطور العلاقة بينهما. ولا يرغب أى منهما أن يراه الآخر وهو يقوم بذلك علانية مع أن كليهما يعترف بأن الأمور تسير على هذا النحو. ويحرص الرجل والمرأة حرصاً شديداً على سلوكهما، ويتوق كلاهما إلى تصوير ذاته فى أبهى صورة، إلا أن كليهما يبحث عن جوانب فى سلوك الآخر تكشف عن آرائه الحقيقية. وتتشكل العلاقة بين الرجل والمرأة بواسطة عملية مركبة ودقيقة من التفسير الرمزى.

وقد استخدم تشارلز كولى – وهو زميل ميد – مصطلح "الذات العاكسة" Looking Glass Self – ليصف به كيف أننا نكوّن انطباعاً عن أنفسنا من خلال استجابات الآخرين. وعندما يصبح الفرد واعياً بالجزء السلبى من ذاته (المفعول)، يكون عندئذ قادراً على أن يؤثر فى نفسه بالتحكم فيها. وبلغة ميد يصبح الفرد موضوعاً لذاته. ويمتد الوعى الإنسانى إلى أشياء أخرى وناس آخرين بالإضافة إلى ذات الفرد. واستخدم ميد مصطلح "الإيحاء بالإشارة" Making Indication لوصف عملية الوعى. ويمثل الإيحاء بالإشارة ركيزة من ركائز عملية صياغة المعانى والأفعال عند الإنسان.

وقد أكد ميد أكثر من كولى على أن "الأنا" يمكن أن تتحكم فى الذات أو توجهها لا إلى الانصياع فحسب، بل إلى التصرف باستقلالية. وفى هذا يقول ميد: "الأنا تعطى الإحساس بالحرية والمبادأة". وقد أشار ميد إلى أن "الأنا" الديناميكية غالباً ما تطغى على الجزء السلبى (الامتثالى) فى الناس المبدعين، مثل الفنانين والموهوبين فى الألعاب الرياضية، ولكننا نمر جميعاً بلحظات من الإبداع (أو لحظات نشعر فيها بالإبداع). وقد قدم ميد إسهاماً رائعاً إلى العلم الاجتماعى من خلال إطاره التحليلى، الذى يمكن أن نرى فيه الفاعل الاجتماعى يتصرف بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، ولا نتيقن من تداعياتها فى الغالب.

ويتضح وعى ميد بكل من القيود المفروضة على التفاعل الاجتماعى والإبداع فيه من تحليله للغة، وهو أحد الملامح المحورية للتفاعلية الرمزية. واللغة هى المحرك الرئيسى للاتصال الاجتماعى، وهدفها هو التعبير عن المعنى. ويكون الطفل الصغير فى بداية حياته مجرد موضوع للاتصال اللغوى، ولكنه يبدأ بالتدريج فى استخدام اللغة لأغراضه الخاصة. وقد رفض ميد بشدة الفكرة القائلة بأن اللغة ببساطة هى ضرب من ضروب التقليد (باستثناء ما يحدث مع الببغاء). فكل المعانى تقريباً التى يبتغيها الفرد للتعبير متاحة فى مفردات معظم اللغات. ومع ذلك فإن العلماء والشعراء – رغم أنهم يتحركون فى حدود المتاح من المعنى واللغة – يبتدعون كلمات وصياغات لغوية جديدة. وهذا هو الهدف من اللغة، أى أنها توفر الرمزية الدالة على معنى. وتظهر رموز لفظية جديدة عند الحاجة إليها.

ونظراً لأن الاهتمام الرئيسى لمنظرى التفاعلية الرمزية ينصب على الاتصال الدال على المعنى، فإنهم يولون اللغة جل عنايتهم. ويؤكد هؤلاء المنظرون مراراً وتكراراً على أن الناس – بوساطة اللغة – يتفاوضون حول الأدوار الاجتماعية المتعددة المتوقع منهم القيام بها. وهذا يعنى أن هؤلاء الناس يتفاوضون مع الآخرين – خاصة فى مواقع السلطة – حول كيفية قيامهم بأداء هذه الأدوار على نحو تام.

وهذا ما يقودنا إلى مفهوم "النظام التفاوضى" Negotiated Order. فعلى سبيل المثال يستطيع بعض الطلاب أو العمال أن ينجزوا أعمالاً أقل من أقرانهم دون أن ينالوا عقاباً؛ لأنهم تمكنوا بمرور السنوات من التفاوض مع رؤسائهم على مستوى أدنى من الإنجاز. وربما يكون هناك آخرون حاولوا ذلك، ولكنهم فشلوا لسبب أو لآخر. ومن هنا يعكس النظام الموجود الجوانب المركبة والتفاوضية للتفاعل. وعلى نحو مماثل لاحظ منظرو التفاعلية أن مختلف الأفراد يفسرون نفس الدور بطرائق مختلفة، وينظر هؤلاء المنظرون إلى الأدوار على أنها أقل تماسكاً مقارنة بما يدعيه الوظيفيون. ويمكن أن نتحقق من ذلك بإلقاء نظرة على حجرة الدراسة أو قاعة المحاضرات حيث نجد أن دور الطالب يمكن تفسيره بطرائق عديدة: مختلفة ومتعارضة.

وقبل أن نختم هذا الجزء نحتاج إلى توضيح مدخل منظرى التفاعلية إلى تحليل النظم الاجتماعية. فالنظام – بالنسبة لهؤلاء المنظرين – ليس شيئاً منفصلاً عن الناس الذين صاغوا بناءه، وهو – أى النظام – محصلة للتفاعل، وهذا ينطبق على الأسرة والمدرسة وجماعة الأقران. وأى نظام يمكن النظر فيه – فى حقيقة الأمر – على أنه محصلة للتفاعل بين الناس الذين يتألف منهم.

ويمكن الكشف عن ماهية نظرية التفاعل الرمزى المعاصرة بالاستشهاد بالاستعارات التى استعان بها منظرو هذه النظرية لوصف الحياة الاجتماعية. فقد قارن إرفنج جوفمان التفاعل الاجتماعى بالأداء المسرحى، وأعطى إيريك بيرنى – مؤسس التحليل النفسى للتفاعل – عنواناً لأحد مؤلفاته "الألعاب التى يلعبها الناس" Games People Play. وبالنسبة لجوفمان يكمن الفرق الرئيسى بين أداء الفعل فى المسرحية وأداء الفعل فى الحياة فى أن هناك مجالاً لتفسير الدور فى الحياة ذاتها. فالفاعل الاجتماعى غير مقيد بنص، ويمكن له أن يرتجل بطلاقة. ويعترف جوفمان أن التغير الاجتماعى يعتمد اعتماداً كبيراً على مثل هذا الارتجال الإبداعى. ومع ذلك يبقى التشابه الأساسى موجوداً بين المسرح والحياة. وقد اتخذ جوفمان لنفسه نموذجاً مسرحياً للتفاعل الاجتماعى. فالحياة الاجتماعية – شأنها فى ذلك شأن المسرحية – يتم تأليفها، وهى – أى الحياة الاجتماعية – صياغة بشرية ذات معنى وواقع يضفيه عليها الإنسان.

التحليل المسرحى: أعمال إرفنج جوفمان

يعد إرفنج جوفمان (١٩٢٢-١٩٨٢) آخر المفكرين البارزين الذين ارتبطوا بمدرسة شيكاغو الأصلية. وقد حصل جوفمان على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو عام ١٩٥٣، أى بعد عام واحد من انتقال هربرت بلومر (الذى كان معلماً لجوفمان) من جامعة شيكاغو إلى جامعة بيركلى. وبعد فترة قصيرة انضم جوفمان إلى بلومر فى جامعة بيركلى، حيث استطاعا تأسيس ما يشبه مركزاً للتفاعلية الرمزية، إلا أن هذا المركز لم يضارع مدرسة شيكاغو فى أهميتها. فقد مضى العمر ببلومر، ولم يصبح جوفمان موضوع اهتمام الخريجين فى بحوثهم. وبعد عام ١٩٥٢ تضاءلت أهمية التفاعلية الرمزية على الرغم من استمرارها كنظرية بارزة فى علم الاجتماع.

وعلى الرغم من أفول نجم التفاعلية الرمزية بصفة عامة، فقد بنى جوفمان لنفسه مكاناً قوياً ومتميزاً فى نظرية علم الاجتماع المعاصر. وقد نشر جوفمان خلال الفترة ما بين الخمسينيات والسبعينيات سلسلة من الكتب والمقالات التى كانت المخاض لميلاد التحليل المسرحى كشكل مختلف من أشكال التفاعلية الرمزية. وعلى الرغم من أن

جوفمان غير اهتمامه فى سنواته الأخيرة، إلا أنه يظل مشهوراً بنظريته المسرحية[١].

ويجسد كتاب "تصور الذات فى الحياة اليومية" الذى نشر عام ١٩٥٩ – أطروحات جوفمان المعروفة فى النظرية المسرحية. وظل جوفمان ينشر على مدى السنوات الخمسة عشرة التالية لهذا العام عدة كتب ومجموعة من المقالات التى شرح فيها بالتفصيل رؤيته المسرحية للعالم. وبلغة مبسطة يرى جوفمان أن هناك تشابهاً كبيراً بين الأداء المسرحى وأنماط الدور الذى نقوم به جميعاً فى أفعالنا وتفاعلاتنا اليومية. والتفاعل سريع الزوال ما لم يدعمه الأداء الاجتماعى. ويعد الأداء الهزيل أو المتصدع تهديداً خطيراً للتفاعل الاجتماعى تماماً مثلما يهدد هذا الأداء القيام بالدور على خشبة المسرح.

ومن الواضح أن التحليل المسرحى يتناغم مع جذوره التفاعلية – الرمزية، حيث يركز على الفاعلين والفعل والتفاعل. واستناداً إلى التفاعلية الرمزية التقليدية وجد جوفمان فى المسرح استعارة رائعة لتسليط الضوء على العمليات الاجتماعية الصغرى. وتُقرأ أعمال جوفمان على نطاق واسع اليوم، ويُعترف بإبداعها وغزارة الآراء النافذة فيها (Collins, ١٩٨٦a; Ditton, ١٩٨٢). وعلى الرغم من النظر إلى جوفمان باعتباره منظراً مهماً، إلا أن هذا الرأى ليس مقبولاً عند الجميع لعدة أسباب:

أولها أنه انشغل بموضوعات محدودة بدلاً من الاهتمام بالجوانب الأساسية الفعلية للحياة الاجتماعية.

وثانيها أنه كان منظراً على المستوى المجهرى فى وقت كان الإطراء فيه من نصيب المنظرين على مستوى الوحدات الكبرى. ويعبر كولينز عن ذلك بقوله: "كلما أمعنا النظر فى أعمال جوفمان، برز لنا كشخصية رائدة فى علم اجتماع الوحدات الصغرى فى أيامنا هذه" (١٩٨١b: ٦).

وثالثها أنه جذب بأعماله عدداً محدوداً من الطلاب الذين استطاعوا أن يبنوا على آرائه، والحقيقة أن بعضهم آمن بأنه يستحيل أن نبنى على أعمال جوفمان التى يُنظر إليها على أنها ليست سوى سلسلة من الآراء الذاتية اللامعة.

وآخرها أنه لا توجد سوى أعمال قليلة قام بها آخرون فى سياق التحليل المسرحى (باستثناء دراسات ليمان وسكوت، ١٩٧٠).

ويصعب التنبؤ بمستقبل التحليل المسرحى مع أنه صار تحليلاً باهتاً بسبب جوفمان نفسه الذى تحرك نحو الاتجاه البنائى فى أعماله الأخيرة.

_ مصطفى خلف عبد الجواد, قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع ,جامعة القاهرة , مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية , 2002.